الفصل الثالث

الإعجاز الأسلوبي في الدلالة الصرفية

من خصائص العربية التى عدها العلماء لها ما تمتاز به من اتساع الأبنية، وكثرة الصيغ التى تستوعب المعانى التى يمكن أن تجيش بها نفس إنسان فى وقت من الأوقات ولما كان التصريف هو سبيل الوصول إلى تلك الصيغ فقد قالوا: " أما التصريف فإن من فاته علمه فاته المعظم"(١٧٩)

ويعلل ابن فارس لتلك المقولة بأمثلة كثيرة تكشف عن فائدة التصريف فى التمييز بين المعانى التى تتحول بتصريف صيغها من الضد إلى الضد: " يقال: القاسط للجائر، والمقسط للعادل، فتحول المعنى بالتصريف من الجور إلى العدل ..."(١٨٠).

وثمة قصة وقعت لعمرو بن عبيد المعتزلى مع أبى عمرو بن العلاء تكشف عن التفات علماء اللغة القدامى لخطورة أمر الصيغ، والخلط بين بعضها وعدم التفريق الدقيق بين دلالاتها، فقد أشارت المصادر إلى وفود أبى عثمان عمرو بن عبيد المعتزلى على أبى عمرو بن العلاء يسأله قائلا:" يا أبا عمرو: أيخلف الله وعده؟ قال أبو عمرو: لا. قال عمرو: أفرأيت من وعده الله على عمل عقابا، أيخلف الله وعده؟ فقال أبو عمرو: من العجمة أتيت أبا عثمان، إن الوعد غير الوعيد..."(١٨١)

فعمرو بن عبيد هنا- إن صحت الرواية- قد أخطأ هنا التفريق بين الصيغتين فالوعد مصدر (وعد) ، أما الوعيد فهو مصدر(أوعد) ، فالصيغة الأولى مصدر ثلاثى، والثانية صيغة مصدر رباعى.

والخلط بين الصيغتين ومصدريهما قد أدى إلى الانتقال من الضد إلى الضد، وهذا المعنى الضدى هو ما يستفاد من المعنى الصيغى للكلمة، وفى اللغة نظائر كثيرة تنقل الصيغة فيها الكلمة من الضد إلى الضد كما فى (قسط) و(أقسط)، و(حنث) و(تحنث)، و (أثم) و(تأثم)..الخ مع اختلاف أنواع الصيغ الممثل بها.

ويذكر السيوطى كذلك كلاما عن أبى حيان يدلنا على مدى الدور الذى تلعبه الصيغ فى التعبير عن المعانى التى لا تكاد تتناهى، والتى لولا الصيغ لضاقت اللغة عنها.

---

(١٧٩) السيوطى - المزهر ٣٣٠/١ نقلا عن ابن فارس. ويلاحظ أن التصريف الذى يعنيه ابن فارس هنا يدخل فيه الصياغة وغيرها من موضوعات الصرف.

(١٨٠) السابق.

(١٨١) الزبيدى - طبقات النحويين واللغويين ٣٩، والزجاجى - مجالس العلماء ٦٢.

يقول أبو حيان:" وأنواع المعانى المتفاهمة لا تكاد تتناهى؛ فخصوا كل تركيب ينوع منها؛ ليفيدوا بالتراكيب والهيئات أنواعا كثيرة، ولو اقتصروا على تغاير المواد، حتى لا يدلوا على معنى الإكرام والتعظيم إلا بما ليس فيه من حروف الإيلام والضرب؛ لمنافاتهما لهما؛ لضاق الأمر جدا، ولاحتاجوا إلى ألوف حروف لا يجدونها، بل فرقوا بين (معتق) و(معتق) بحركة واحدة حصل بها تميز بين ضدين"(١٨٢)

وهذا كله يدلنا على خطورة أمر الصيغ إذ إن الخطأ فيها يحول المعنى من الضد إلى الضد.

فضلا عن أن الصيغ لا تكلفنا مادة جديدة بل يأتى المعنى الوظيفى للصيغة محمولا على المادة متراكبا مع الدلالة المعجمية أو اللفظية على حد تعبير ابن جنى وذلك عن طريق صورة اللفظ التى تتلبس به لتعطى للكلمة صيغتها ومن ثم معناها الوظيفى. فضلا عن أن المعانى الوظيفية ذاتها تتعدد وتتراكب للصيغة الواحدة فى الوقت الواحد فى السياق الواحد كما سيكشف عنه البحث فى حينه.

بالإضافة إلى ذلك، فإن الصيغة الواحدة قد تشترك بين عدة معان وظيفية، تجعل للكلمة الواحدة وجوها متعددة من الدلالة، وظلالا إيحائية، تعمل على إثراء المعانى الفنية التى يريد المبدع أن يعبر عنها، وهذه ظاهرة أخرى غير الظاهرة السابقة كشف عنها البحث واصطلح على تسميتها بالاشتراك الصيغى أو تعدد المعنى الوظيفى للصيغة الواحدة.

فضلا عن هذا كله، فقد أشاد الباحثون بدور آخر تلعبه الصيغة لا يقل عما ذكرناه آنفا ألا وهو تمييز الكلم فى السياق، وتفصيله وإحكامه، ووضع الحدود الفاصلة بينها.

ولذا قرر الباحثون فى علم اللغة والصرف أن " اللغة العربية محظوظة جدا بوجود هذه الصيغ الصرفية؛ لأن هذه الصيغ تصلح لأن تستخدم أداة من أدوات الكشف عن الحدود بين الكلمات فى السياق، وتشكو معظم لغات العالم من عدم وجود مثل هذا الأساس الذى يمكن به أن تحدد الكلمات.

والباحثون فى لغات غير لغاتهم يعانون التعب والمشقة اللذين يجدونهما فى سبيل هذا التحديد، فيعمدون إلى كل الوسائل الممكنة يستخدمونها فى هذا الغرض، ويظهر القسر والعسف فى استخدامها واضحا، فأما اتخاذ الصيغة الصرفية أداة من أدوات

---

(١٨٢) انظر: المزهر ٣٤٧/١.

خلق الحدود بين الكلمات فى السياق، فميزة للغة العربية من كبريات ميزاتها التى تفاخر بها"[١٨٣].

ويقرر ذلك باحث آخر فيقول:" والميزة الحقة التى تذكر للغة العربية فى مقابل غيرها من اللغات ليست أفضليتها فى اعتمادها على القوالب للتعبير عن المعانى الوظيفية فى مقابل اعتماد غيرها على العناصر الصرفية غير القالبية، للتعبير عن تلك المعانى، وإنما الفضل الحق لتلك الظاهرة الصرفية يكمن فى اتخاذ العربية للقوالب والأبنية وسيلة حاسمة للحدود بين الكلمات فى السياق"[١٨٤].

وهذه الحقيقة قد فطن إليها علماؤنا القدامى فبينوا أن" كل لفظ له معنى لغوى يفهم من مادة تركيبه، ومعنى صيغى وهو ما يفهم من هيئته، أى: حركاته وسكناته وترتيب حروفه؛ لأن الصيغة اسم من المصوغ الذى يدل على التصرف فى الهيئة لا فى المادة؛ فالمفهوم من حروف (ضرب) استعمال آلة التأديب فى محل قابل له، ومن هيئته وقوع ذلك الفعل فى الزمان الماضى، وتوحيد المسند إليه وتذكيره وغير ذلك"[١٨٥].

ولعل هذا يؤكد ما ذكره الباحثون المحدثون من الميزة التى تمتاز بها اللغة العربية بتلك الصيغ التى تقوم بدور وضع الحدود بين الكلمات، وذلك لما يمتاز به كل لفظ من ألفاظ اللغة من استقلاليته بصيغته ومعناه الوظيفى فضلا عن معناه المعجمى.

وإذا كان الدور الذى تلعبه الصيغة على هذا القدر من الأهمية، فإننا نؤمل أن يكشف البحث فى صفحاته المقبلة عن الأسس الفنية للتوظيف البلاغى لصيغة الكلمة والتى يمكن أن تسهم فى خدمة البحوث البلاغية والنقدية للأدب العربى فى كافة عصوره.

"فلا شك أن الناقد المعاصر سوف يجد فى دراسة الألفاظ ضروبا من القيم الفنية التى تبنى على الفروق القائمة بينها فى البنية الصرفية، وطبيعة اللواحق والسوابق،

---

(١٨٣) د/ تمام حسان - مناهج البحث فى اللغة ص١٧٦ ط س ١٩٥٥، وانظر أيضًا فى أهمية الصيغ د/ محمود السعران - علم اللغة ص٢٤٩ - ٢٥٠ ط دار المعارف س١٩٦٢، د/ أحمد المتوكل من البنية الحملية إلى البنية المكونية - دار الثقافة - الدار البيضاء ص١٦٣.

(١٨٤) د/ أحمد عبد العظيم - الوحدات الصرفية ودورها فى بناء الكلمة العربية - دكتوراة - دار العلوم رقم ١٧٤، ص٢١٢.

(١٨٥) انظر: أبو البقاء الكفوى - الكليات ص٧١٥ - ٧١٦.

والظلال الدلالية السياقية والإيحائية والقيم الإيقاعية والموسيقية يقف بها على نتائج طريفة ومؤثرة فى صوغ الأحكام"[١٨٦].

وذلك أن الاختيار الفنى لتلك الصيغ من قبل المبدع، وكذلك ما يقوم به من تكرار لبعض الصيغ، أو عدول فنى مقصود عن صيغ يقتضيها السياق إلى صيغ أخر يراها أكثر مناسبة؛ كل ذلك يحدث بلا شك نوعا من الإثارة ولفت الذهن للمتلقى ناقدا كان أو غير ناقد.

وإذا كان التحليل اللغوى يهتم بتمييز تلك العناصر الثلاثة: الصوت واللفظة المفردة وعامل الصيغة[١٨٧]؛ فإننا نقرر أن ما يبحث عنه الناقد والبلاغى أمر وراء الخطأ والصواب.

فإذا كان اهتمام الصرفى يقف عند ما يجوز وما لا يجوز استخدامه من الصيغ للدلالة على معان بعينها، بمعنى أن وظيفة الصرفى تقف عند حدود بيان الصيغ الدالة على كل معنى من المعانى؛ بحيث يكون التعبير واقعا فى دائرة الصواب وفق ما تواضع عليه العرب- فلا شك أن اهتمام البلاغى والناقد وراء ذلك كله. فالمفاضلة بين تلك الصيغ، والتخير الفنى لإحدى الصيغ التى يصلح أن يعبر بها جميعا عن المعنى المراد مع وقوعها فى دائرة الصواب، إنما هو وظيفة البلاغى والناقد الفنى خاصة، ولذلك " لم يهتم البلاغيون بالصيغ أو القوالب الصرفية فى ذاتها، فتحديد تلك الصيغ، وبيان وظائفها، وتوضيح الفروق التى تميز بينها فى تأدية تلك الوظائف، كل أولئك أمور قد تكفل بها ونهض بأدائها علم النحو، وإنما اهتم البلاغيون بالمزايا التى تنبثق عن استثمار تلك الفروق وتوظيفها فى الأسلوب الفنى، فتأمل تحليلاتهم للأساليب يكشف بوضوح عن أن الصيغة لا تكتسب المزية فى نظرهم إلا إذا كانت هناك صيغة أخرى صالحة لأداء وظيفتها **(العامة)** من جهة، وقاصرة عن أداء ما تؤديه فى سياقها الخاص من جهة أخرى. ومن ثم كانت المقارنة بين الصيغتين الأصلية **(أو المنتقاة)** والبديلة **(أو المفترضة)** هى المنهج الذى سار عليه البلاغيون فى تحليل مزية الأولى[١٨٨].

فبالوقوف على الدلالات الدقيقة للصيغ نستطيع أن نقف على الفروق الفنية الدقيقة بين المعانى مما يفيد أكثر الإفادة فى التوظيف البلاغى لتلك الصيغ فى سياقاتها التى

---

(١٨٦) د/ صلاح رزق - أدبية النص ص٢١٧ - ٢١٨ - دار الثقافة العربية.

(١٨٧) لانسون - منهج البحث فى اللغة - ص٨٠ ت د/ محمد مندور - بيروت دار العلم للملايين.

(١٨٨) انظر د/ حسن طبل - المعنى فى البلاغة العربية ص٢٢٩ - ٢٣٠.

تطابق بها مقتضى الحال، أيا كان ذلك الحال- حال المخاطب أو حال المتكلم وفى رأيى أن هذا هو ما يحتاج منا بذل جهد كبير فى الوقوف على تلك الصيغ فى سياقاتها ونماذجها التطبيقية حتى نستطيع الوقوف على طبيعة الدور الذى تلعبه تلك الصيغ من الناحية الفنية، وهذا هو ما سوف يضطلع هذا البحث بأعبائه فى صفحاته التالية.

وقد تجاوزت مصادر هذا البحث حدود ما وقفت عنده كتب البلاغة النظرية فى هذا الباب من التفريق بين دلالة كل من الاسم والفعل على العموم إلى ما يندرج تحت هذين النوعين من أنواع عديدة من الصيغ تتميز بدلالاتها الفنية الرائعة والجديرة بتتبعها فى سياقاتها المختلفة ليتعمق إحساسنا بالقيمة الفنية لتلك الصيغ التى أهملتها كتب البلاغة النظرية، أو وقفت عند بعضها وقفة عابرة فى مبحث الفصاحة، أو فى بعض مباحث علم المعانى، جعلت بعض الدارسين المعاصرين يغمطون تلك الدراسات حقها حيث يقول: "وإذا أردنا آخر الأمر أن نصور موقف المتقدمين من فاعلية البناء الصرفى تصويرا موجزا فلنقل: إن هؤلاء لم يكن لديهم فى فهم جماليات البناء الصرفى مكان ملحوظ، ولم تكن لديهم فكرة واضحة أو مقنعة حول إقامة أصول متفق عليها للتذوق الأدبى أو الكشف الفنى العميق"[١٨٩]. ومن ثم فقد حاول البحث أن يكشف عن الجهود السابقة فى هذا المجال، كما حاول كذلك رصد العديد من تلك الصيغ فى سياقات رفيعة متعددة من القرآن الكريم.

---

(١٨٩) د/ تامر سلوم - نظرية اللغة والجمال فى النقد العربى - دار الحوار - ط١ - ١٩٨٣م - ص٩٧.

المبحث الأول

الإعجاز الأسلوبي لصيغة الكلمة على أساس الاختيار

ينبنى البحث فى هذا الفصل على ما قمت بتأصيله من أن الصيغ قد تعدد أو تشترك فى الدلالة على المعنى الواحد مما يمكن أن يكون مفتاحا لفهم عملية الاختيار فى الصيغ[١٩٠].

وذلك أن الاختيار - كما سيتضح لنا - إنما يقع بين البدائل أو النظائر، وقد بين البحث فيما سبق أن الصيغ فى اللغة العربية تمتاز بظاهرة الاشتراك والتعدد.

ومن ثم يقع الاختيار بين تلك البدائل أو الأشباه والنظائر المتعددة والتى تشترك فيما بينها فى التعبير عن معنى واحد بطريقة متقاربة.

وحتى يزيد وعينا بطبيعة الاختيار ينبغى أن نكون واعين بأن ثمة مستويين متمايزين أساسيين للكلام عرفهما البلاغيون قديما وحديثا.

الأول: وهو ما يمثل الحد الأدنى لبلاغة الكلام، وهو ما تحقق فيه لزوم الجادة، وكان موافقا للصواب، موسوما بالصحة اللغوية.

ويعد الوقوف عند هذا الحد - حد الإفهام - أدنى مراتب البلاغة، التى إذا ما خرج المتكلم عنها لم يصح وصف نطقه بالكلام وإنما يوصف بالنعيق.

فالبلاغة - كما يقررها الطيبى- " لها طرفان: الإعجاز وحاكمه الذوق، وما خرج عن النعيق، وبينهما مراتب لا تكاد تنحصر"[١٩١].

والثانى: هو ما اتصف بالصحة اللغوية، وزاد على ذلك بحسن التخير للفظ توخيا للمطابقة.

وهذا المستوى هو ما يتنافس فيه المتكلمون بغية التدرج فى سلم الفصاحة والبلاغة، ودرج البيان.

هذا التمايز الواضح بين هذين المستويين للكلام هو أمر يكاد يكون مستقرا فى الدراسات البلاغية منذ بدايات التأليف البلاغى، وما كتب حوله من كتابات متناثرة.

---

(١٩٠) انظر ذلك تفصيلا في رسالتي للدكتوراة بعنوان : الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم – المكتبة العصرية – بيروت.

(١٩١) الطيبى - التبيان فى المعانى والبيان بتحقيقى - ص١٤٥ - ط المكتبة التجارية بمكة المكرمة.

ولعل عبارة الجاحظ الشهيرة التى يقول فيها "المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى، والبدوى والقروى، وإنما الشأن فى إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفى صحة الطبع وجودة السبك، وإنما الشعر صياغة، وضرب من التصوير"[١٩٢] أقول لعل هذه العبارة تعد أول إشارة إلى التفريق بين مستويين من المعانى:

الأول: المعانى النمطية:

وهى ما عبر عنها الجاحظ بأنها مطروحة فى الطريق وهذه المعانى إنما هى وليدة الصياغة النمطية التى يوقف بها عند دائرة الصواب.

الثانى: المعانى الفنية:

وهى تلك المعانى التى تكون وليدة تخير اللفظ، وسهولة المخرج، وجودة السبك، وغيره مما نبه إليه الجاحظ فى عبارته السابقة.

هذا التفريق الواضح بين مستويى اللغة الذى عنى ببيانه والوقوف عليه نقادنا القدامى هو ما تهتم الدراسات الأسلوبية بالوقوف عليه.

فهذا الواقع اللغوى يعد بمثابة **(الأصل)** وهو ما تهتم تلك الدراسات برصد عملية الخروج عنه لواقع طارىء من شأنه أن يعيننا على تدبر أبعاده الدلالية والأصولية"[١٩٣].

وقد تعددت عبارات هؤلاء الأسلوبيين ومصطلحاتهم فى التعبير عن هذين المستويين من اللغة.

فمن المصطلحات التى عبروا بها عن الأصل أو المستوى النمطى"

الأصل	النمط
العبارة البريئة	الخطاب الساذج
الاستعمال الدارج	الكلام الفردى
الاستعمال المألوف	الوضع الحيادى

---

(١٩٢) الحيوان/ الجاحظ/ ط الحلبى ٣/٣١.

(١٩٣) المسدى/ الأسلوبية/ص ٩٤.

الاستعمال العادى	الدرجة الصفر
الاستعمال النمط	التعبير الشائع. . .إلخ[١٩٤]

من المصطلحات المعبر بها عن المستوى الفنى:

الانزياج	الانتهاك
التجاوز	الانحراف
اللحن	الاختلال. . .إلخ[١٩٥]

هذه المصطلحات العديدة المتقاربة فى معانيها تعبر عن معنيين أساسيين هما النمطية أو الثبات فى المستوى النمطى، والعدول أو المخالفة فى المستوى الفنى ومن ثم فالاختيار على هذا هو نوع من العدول؛ لأنه عدول عن المستوى النمطى إلى المستوى الفنى[١٩٦]، والعلاقة بين المستويين هى أقرب شىء للعلاقة بين اللغة والكلام فإذا كانت اللغة هى النظام الثابت".. . . المائل فى أذهان الجماعة اللغوية، فالأسلوب المنتمى إلى الكلام هو بطبيعة الحال – هو بحسب هذا الرأى – عدوان مستمر على ذلك النظام وانتهاك مطرد لسننه وأعرافه"[١٩٧].

ومن ثم ينشأ عن هذين المستويين من الاستعمال اللغوى مستويان من المعنى:

المستوى الأول: هو ما يعبر عن أصل المعنى أو المعنى المجرد وهو المعنى الذى يشترك فيه الناس جميعا عربهم وعجمهم.

أما المستوى الثانى: فهو الذى يتميز به المتكلم بقدر ما فى أسلوبه من حسن التخير، ومراعاة الغرض والمقصد من الكلام.

فالمعنى المجرد أو أصل المعنى يمكن أن يعبر عنه بأكثر من صياغة أو أسلوب تختلف فيما بينها فى إيحاءات المعنى الذى تشترك فيه تلك الأساليب جميعا.

---

(١٩٤) الهامش السابق ص٩٥-٩٦.

(١٩٥) السابق.

(١٩٦) سيأتى فى صفحات البحث التالية التفريق بين كل من الاختيار والعدول، وبيان المراد بكل فى هذا البحث.

(١٩٧) د/ حسن طبل - أسلوب الالتفات - ص ٤٤.

أما المعنى الفنى فهو الذى لا يمكن التعبير عنه بغير صيغته، لأن المفترض أن مبدعه قد اختار من الصيغ والألفاظ ما هو أنسب للتعبير عن تجربته ومعانيه الدقيقة.

وهذا مطرد واضح جدا فى جانب الصيغ، فأصل المعنى يشترك فى الدلالة عليه عدد من الصيغ التى تعبر عنه، أما الدلالة الفنية الدقيقة فهى التى لا يمكن التعبير عنها بغير صيغتها. ولننظر مثلا إلى قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ (الملك: ١٩).

نجد أن لفظتى (**صافات - ويقبضن**) يمكن أن يعبر عن الحديث فيهما وهو أصل المعنى بأكثر من طريقة، ولذا اختير التعبير باسم الفاعل فى اللفظة الثانية، وكان يمكن التعبير عنها بغير اسم الفاعل كالفعل المضارع (**يصففن**).

وفى اللفظة الثانية كان يمكن التعبير عنها بغير الفعل المضارع؛ كأن يعبر عنها باسم الفاعل كسابقتها مثلا.

ولكن الآية قد اختارت اسم الفاعل للتعبير عن الحدث فى اللفظة الأولى واختارت الفعل المضارع للتعبير عن الحدث فى اللفظة الثانية، وما ذلك إلا رعاية للمعنى الفنى الدقيق الذى أرادت الآية أن ترمز إليه وتدل عليه.

قال الزمخشرى: "فإن قلت: لم قيل (**ويقبضن، ولم يقل قابضات**) (**قلت**) لأن الأصل فى الطيران هو صف الأجنحة؛ لأن الطيران فى الهواء كالسباحة فى الماء، والأصل فى السباحة مد الأطراف وبسطها، وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك فجيء بما هو طارئ غير أصل بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات، ويكون منهن القبض تارة بعد تارة كما يكون من السابح"[١٩٨].

فكأن الآية قد رمزت بذلك - فضلا عن إثبات حدثى الصف والقبض - إلى أن الصف هو غالب فعل الطير فى جو السماء وأن القبض يكون عارضا، وهذا المعنى وإن لم يكن مقصودا بالأصالة من الكلام، فإن اختيار الآية لهاتين الصيغتين قد شمل هاتين الدلالتين دون أن يزيد فى لفظ الكلام بل عبر عن المعنى بهيئة اللفظ نفسه وليس بلفظ آخر، ولو خولفت تلك الصياغة، وأريد التعبير عن تلك المعانى، لقيل (**يصففن غالبا وأحيانا قابضات**) وفيه من الركاكة والتطويل ما فيه، فضلا عن أن المعنى المراد إضافته ليس مقصودا من الكلام بالأصالة؛ وإنما هو متمم لبيان القدرة

---

(١٩٨) الكشاف للزمخشرى ١٢٤/٤.

وتمام الحكمة، فكان تضمينه فى هيئة الكلمة وبنيتها أولى من الإتيان بلفظ جديد يخصه.

والمقصد هنا أن نبين أن أصل المعنى يمكن الدلالة عليه بأكثر من صيغة. فأصل المعنى فى الآية لفت الأنظار إلى قدرة الله فى حفظ الطير وتسخيره فى جو السماء فى حالتى القبض والبسط، وهذا يحصل بالتعبير باسم الفاعل أو المضارع لكن الآية قد اختارت للمعنى الأول اسم الفاعل، وللثانى صيغة المضارع للدلالة على معنى أخص وأدق من أصل المعنى.

ومما يجدر بيانه فى هذا الفصل أن نبين أن هذا الإحساس بتمايز هذين المستويين من المعنى كان شائعا فى الدرس البلاغى(١٩٩).

وقد ظل هذا الإحساس بتمايز هذين المستوين ظاهرا فى الدرس البلاغى حتى المرحلة الأخيرة التى اكتملت فيها مباحث البلاغة، وبلغت الغاية من التقنين والتنظير(٢٠٠).

وقد تساءل عبد القاهر عن سبب تنحية المستوى النمطى عن الوصف بالبلاغة رغم اطراده على الصواب مبينا أن ما يستحق الوصف بالبلاغة هو أمر وراء الصحة اللغوية، فيقول بعد ذكر نماذج لذلك المستوى النمطى: "اعلم أن من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته أن لم يحتج واضعه إلى فكر وروية حتى انتظم. . . وذلك إذا كان معناك، معنى لا تحتاج أن تصنع فيه شيئا غير أن تعطف لفظا على مثله، كقول الجاحظ: "جنبك الله الشبهة، وعصمك من الحيرة، وجعل بينك وبين المعرفة نسبا، وبين الصدق سببا، وحبب إليك التثبت، وزين فى عينك الإنصاف. . .إلخ فما كان من هذا وشبهه لم يجب به فضل إذا وجب إلا بمعناه أو بمتون ألفاظه، دون نظمه وتأليفه، وذلك لأنه لا فضيلة حتى ترى فى الأمر مصنعا، وحتى تجد إلى التخير سبيلا، وحتى تكون قد استدركت صوابا.

فإن قلت: أفليس هو كلاما قد اطرد على الصواب، وسلم من العيب؟ أفما يكون فى كثرة الصواب فضيلة؟ قيل أما الصواب كما ترى فلا. لأنا لسنا فى ذكر تقويم اللسان، والتحرز من اللحن، وزيغ الإعراب، فنعد بمثل هذا الصواب. وإنما نحن فى أمور

---

(١٩٩) انظر فى الدلالة على ما ذكرنا د/ عبد الحكيم راضى/ نظرية اللغة / الفصل الثانى مستويان من اللغة ص٢٤ إلى آخر الفصل/ مكتبة الخانجى.

(٢٠٠) انظر الطيبى - التبيان فى المعانى والبيان - ص ١٤٥ - ط المكتبة التجارية بمكة المكرمة وانظر ما سبق نقله عن الطيبى فى بداية هذا المبحث، وانظر بدر الدين بن مالك - المصباح فى المعانى والبيان والبديع ت د / حسنى عبد الجليل ط مكتبة الآداب ص ٣ - ٤.

تدرك بالفكر اللطيفة، ودقائق يوصل إليها بثاقب الفهم"[٢٠١] فالوقوف على حد الصحة اللغوية ليس هو غاية البلاغة، وإنما هو غاية النحو والمعجم، لأنا - أى المختصين بأمر البلاغة - لسنا فى ذكر تقويم اللسان والتحرز من اللحن والإعراب مما هو غاية النحوى، وإنما نحن بصدد أمور ومعان تدرك بالفكر اللطيفة، ودقائق يوصل إليها بثاقب الفهم.

والحقيقة: أن عبد القاهر يفرق فى كلامه بين نوعين من الصواب فى الكلام والمعانى:

الأول: ما يمكن أن نصطلح على تسميته بالصواب النمطى أو الصواب النحوى.

والثانى: هو ما حقق ذلك الصواب وزاد عليه بحسن الصياغة، وهذا الثانى هو الجدير بأن يستدرك فى نظر عبد القاهر، وفى نظر البلاغيين قاطبة كذلك.

وهذان المستويان من المعنى كلاهما واقع فى إطار ما تسمح به اللغة إما حقيقة وإما مجازا فالمستوى الثانى البلاغى وإن كان قائما على قدر كبير من التوسع أو التسمح والأريحية فى الاستعمال اللغوى فإنه واقع كذلك فى إطار ما تسمح به اللغة بحيث لا يخرج إلى نوع ثالث من الاستعمال يعد مرفوضا فى العرف اللغوى بين أبناء اللغة الواحدة، وذلك لأن ما يقع فى المستوى البلاغى من العدول أو الخروج أو الانحراف غالبا ما يكون عدولا مقننا مضبوطا بقواعد لغوية تقنن هذا العدول، أو يكون هذا الابتكار والتوسع فى الاستخدام له ما يسوغه ويبرره بحيث لا يعدو كونه ضرورة لغوية مسموح بها بقيود عليها.

بالتالى نكون أمام ثلاثة مستويات من الاستعمال اللغوى ينتج عنها ثلاثة مستويات من المعنى:

الأول: المستوى النمطى النحوى.

الثانى: المستوى الفنى البلاغى.

الثالث: المستوى المرفوض (الخطأ).

ولعل هذا الذى استوحيناه من كلام عبد القاهر هو ما قصد إليه **(تودروف)** العالم اللغوى الشهير حيث يرى أن الاستعمال يكرس اللغة فى ثلاثة أضرب من

---

(٢٠١) دلائل الإعجاز بتحقيق شاكر ص٩٨.

الممارسات المستوى النحوى - والمستوى اللانحوى - والمستوى المرفوض، ويرى أن المستوى الثانى يمثل أريحية اللغة فيما يسع الإنسان أن يتصرف فيه.

وإذا كان الصواب النمطى: هو ما يوقف فيه عند تحرى قواعد اللغة، وتقويم اللسان، فإن هذا المستوى من المعنى يظهر فى جانب الصيغ - موضوع بحثنا - فى استعمالها على الجادة التى جرت عليها العرب فى لغتها، وذلك دون تخير لصيغة دون أخرى، أو عدول عن صيغة لأخرى أكثر موافقة، وأقوى مطابقة، مما تتميز به الأساليب، وتظهر فيه براعة المتكلمين، فى صورة عديدة من الأساليب، ومراتب من البراعة لا تكاد تنحصر.

وأما الصواب الفنى: فهو ما يظهر فيه ذلك التفاوت والاختلاف فى الأساليب، ولعمر الله إنه لقصب السبق، وغاية المضمار، وذلك لأن" المعانى البلاغية أو الفنية فى تصور البلاغيين هى مجموعة الإشعاعات والإيحاءات الدلالية الخاصة المتجسدة فى صياغاتها الفنية بأشكالها التعبيرية الخاصة"[٢٠٢] ومن ثم فإن استخدام الصيغ وتوظيفها إنما يتم على هذين المستويين:

١- مستوى الصحة اللغوية.

٢- مستوى الصحة الفنية.

وإذا كان المستوى الأول هو الحد الأدنى للبلاغة الذى يخرج عنه الكلام إلى حد النعيق، لذا فإنه يخرج من دائرة بحثنا إلى دائرة البحث النحوى ودارس اللغة بأصواتها ومعجمها وصرفها ونحوها ومن ثم فالذى يعنينا فى بحثنا هذا هو التوظيف البلاغى لتلك الصيغ وهو ما يعمد فيه إلى ضرب من التخير، أو عدول عن الجادة، أو تكرار لصيغة بعينها، أو نحو ذلك مما سنبين قريبا من أسس التوظيف البلاغى لصيغة الكلمة. ومما يتعلق بهذا المقام أن نبين أن هذا التمايز الواضح بين هذين المستويين السابقين، إنما هو مبنى فى الحقيقة على ما بين النحو - داخلا فيه علم الصرف - والبلاغة من تمايز واضح فى الدور والمقصد، أو يمكن أن نقول إن العلاقة بين المستويين كالعلاقة بين غاية هذين العلمين فقد حدد علماء اللغة القدامى وظيفة النحو بما لا يزيد عن توضيح المعانى المشكلة، ويدل به على الفاعل، والمفعول، والمضاف إليه، وسائر ذلك من المعانى التى تعتور الأسماء[٢٠٣].

---

(٢٠٢) د/ حسن طبل - المعنى فى البلاغة العربية - دكتوراة ص ١٥٠.

(٢٠٣) انظر الإيضاح فى علل النحو للزجاجى ص ٧٧.

ويعقد ابن فارس فى كتابه بابا يطلق عليه **(باب الخطاب الذى يقع به الإفهام من القائل والفهم من السامع)**. ثم يقول "ذلك بين المتخاطبين من وجهين: أحدهما الإعراب، والآخر: التصريف. فأما الإعراب فيه تميز المعانى. ويوقف على أغراض المتكلمين. . .وأما التصريف فإنه من فاته فاته المعظم"[٢٠٤].

"تلك هى الوظيفة غير الفنية للغة - سواء سميت بيانا أو إفهاما وتفهيما أو غير ذلك. فالمهم أنها تقوم على تيسير التعامل بين الناس، وتعمل على ربط المجموعة البشرية برباط من الفهم المشترك استنادا إلى حقيقة أن الإنسان هو الكائن الاجتماعى المحتاج إلى هذه الوسيلة، والقادر على استخدامها"[٢٠٥] أما وظيفة البلاغة وغايتها فهى أمر وراء ذلك كما سبق بيانه، فالكلام البليغ ليس هو الذى يقف عند حد الصحة اللغوية بغاية الإفهام وبيان أصل المعنى، فهذا الكلام لا يجب به فضيلة لدى البلاغيين.

فوظيفة البلاغة إذا:

التعبير عن المعانى الدقيقة التى يبلغ بها صاحبها كنه ما فى نفسه ويبلغ بها مراده إلى سامعه[٢٠٦].

وذلك بطريقة فنية تعمق حسن الاختيار، من إيجاز لفظ وحسن نسق، وتأنق فى الصياغة، وروعة فى التصوير إلى غير ذلك مما يكسب الكلام حسنا ورونقا.

وفى رأيى أن المستوى البلاغى أو الفنى للمعنى هو الذى يراعى تلك الوظيفتين الأساسيتين للبلاغة معا عند الصياغة.

وقد كشف عبد القاهر عن هاتين الوظيفتين الأساسيتين للبلاغة فى فصل أورده فى دلائل الإعجاز فى تحقيق القول على البلاغة والفصاحة، والبيان، والبراعة، وكل ما شاكل ذلك حيث يقول:

---

(٢٠٤) الصاحبى: ١٦٢،١٦١، وانظر المزهر١ / ٣٢٩ - ٣٣٠ حيث نقل كلام ابن فارس.

(٢٠٥) د/ عبد الحكيم راضى/ نظرية اللغة ص ٦٣/ مكتبة الخانجى- القاهرة.

(٢٠٦) وهذا هو ما يفيده تعريف البلاغة لدى بعض البلاغيين، فقد عرفها الرازى على سبيل المثال بأنها "بلوغ الرجل بعبارته كفه ما فى قلبه" نهاية الإيجاز ص ٨٩، وقد عرفها الطيبى كذلك بهذا التعريف ضمن ما ذكره من تعريفات للبلاغة فى كتابه لطائف التبيان ق٦، مخطوط بدار الكتب المصرية/٢٦ بلاغة م، وقد نشرته المكتبة التجارية بمكة المكرمة بتحقيقى.

"ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات.. غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما له كانت دلالة، ثم تبرجها فى صورة هى أبهى وأزين وآنق وأعجب وأحق بأن تستولى على هوى النفوس، وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب. . ."[٢٠٧].

هذه الوظيفة الأساسية للبلاغة هى إذا أهمّ سمات المستوى الفنى.

وهذا أمر لم يزل جهابذة الأدب ونقاد الشعر يمتدحون به الشاعر، ويبرّزونه به على أقرانه، وذلك يزيد به على غيره من معنى دقيق، وفكرة لطيفة، ومرمى بعيد، وإن كان قد اشترك مع غيره فى أصل المعنى المراد، ولكنهم حكموا له بالتفرد فى المعنى الذى أتى به، لأنه وإن اشترك مع غيره فى أصله، إلا أنه قد انفرد بدقائقه التى لا يوصل إليها إلا بثاقب الفكر، مع تعبيره عن تلك المعانى والدقائق فى مثل لفظ الأول أو أوجز منه، وبطريقة فى الصياغة آنق منه وأعجب[٢٠٨].

ولك أن تتأمل كثرة ما أفاده البلاغيون من تحليل الصيغ فى قوله تعالى:﴿ **وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**﴾[٢٠٩] لترى ما فى التعبير بهذه الصيغ من الفوائد والدقائق التى ما كان يمكن التوصل إليها إلا بتلك الصياغة. ومن ذلك ما علق به عبد القاهر على قوله تعالى﴿ **هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ**﴾ (فاطر:٣).

فلو قيل "هل من خالق غير الله رازق لكم" لكان المعنى غير ما أريد[٢١٠] وذلك أن المقصود فى الآية تقرير العباد برزق الله تعالى لهم، ويمكن أداء ذلك المعنى الأصلى باسم الفاعل "رازق" أو بالمضارع "يرزق" أو غير ذلك، إلا أن فى التعبير بالمضارع (يرزق) من الدلالة على تجدد الرزق وحصوله للعباد كل وقت، ووجدانهم إياه بعد حاجة إليه وافتقار - فيه من دقة المعنى ولطفه مالا يفيده التعبير باسم الفاعل. و"من البين فى ذلك قول الأعشى:

لعمرى لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار فى يفاع تحرق

---

(٢٠٧) عبد القاهر/ دلائل الإعجاز ص ٤٣، وانظر أيضا تعريف ابن وهب للبلاغة فى البرهان فى وجوه البيان ص ١٦٣، وسيأتى نقله قريبا فى الباب التالى فى الحديث عن الاختيار.

(٢٠٨) انظر عبد القاهر/ دلائل الإعجاز/ص ٤٨٩.

(٢٠٩) هود/ ٤٤، وانظر الكشاف٢/٤٠٥، ودلائل الإعجاز ص ٤٦ والمفتاح للسكاكى ص ١٧٧-١٧٨.

(٢١٠) دلائل الإعجاز ص ١٧٧.

تـــشب لمقـــرورين يـــصطليانها وبـات علـى النـار النـدى والمحلـــق

معلوم أنه لو قيل "إلى ضوء نار متحرقة" لنبا عنه الطبع وأنكرته النفس، ثم لا يكون ذاك النبو وذاك الإنكار من أجل القافية وأنها تفسد به، بل من جهة أنه لا يشبه الغرض ولا يليق بالحال. وكذلك قوله[٢١١]

أو كلمـــا وردت عكـــاظ قبيلـــة بعثـــوا إلـــى عـــريفهم يتوســـم.

وذاك لأن المعنى فى بيت الأعشى على أن هناك موقدا يتجدد منه الإلهاب والإشعال حالا فحال، وإذا قيل "متحرقة" كان المعنى أن هناك نارا قد ثبتت لها وفيها هذه الصفة، وجرى مجرى أن يقال "إلى ضوء نار عظيمة" فى أنه لا يفيد فعلا يفعل.

وكذلك الحال فى قوله "بعثوا إلى عريفهم يتوسم" وذلك لأن المعنى على توسم وتأمل ونظر يتجدد من العريف هناك حالا فحالا، وتصفح منه الوجوه واحدا بعد واحد. ولو قيل (**بعثوا إلى عريفهم متوسما**) لم يفد ذلك حق الإفادة[٢١٢] فالفعلان (**تحرق، ويتوسم**) فى الأبيات السابقة فيهما من الدلالة على تجدد الحدث مما يناسب الحال المعبر عنه، مالا يفيده غير صيغتهما المستخدمة فى هذا الموضع، ولذلك وقع الاختيار عليهما.

والأمثلة على ذلك كثيرة ليس هذا محل استقصائها، وإنما قصدت فقط إلى التأكيد على أمر هام، وهو أنه ليس غاية البلاغى هى مجرد التحسين اللفظى؛ بل ينبغى أن تكون غايته بالمقام الأول هى تكثير الفائدة، وجمع دقائق المعانى المراد بيانها، والحفاظ على شعبها أن يند منها شىء عند التعبير والإبانة فإنما مدار الفصاحة والبلاغة على توفية المعانى حقها وبلوغ كنه ما فى النفس من المعانى مع القدرة على إيصالها للمخاطبين.

ومن ثم يأتى دور الاختيار للصيغ فى تحصيل تلك الغاية، وسنحاول توضيح ذلك بصورة أكبر فى الجانب التطبيقى من البحث. ومما يتصل بتلك النقطة أن ننبه إلى أن التأنق فى اختيار الصيغ والكلمات فى إطار ذلك المستوى الفنى يؤدى حتما إلى ما يسمى بـ"التفرد الأسلوبى" للمنشئ أو المبدع وذلك أن "لكل فرد معجمه اللغوى المتميز، فهو يميل إلى استعمال بعض الكلمات دون بعضها الآخر، وهناك كلمات لا يستعملها على الإطلاق . . ولكل فرد طريقته الخاصة فى بناء الجمل والربط بينها،

---

(٢١١) دلائل الإعجاز ص ١٧٦.

(٢١٢) دلائل الإعجاز ص ١٧٦-١٧٧.

فهو يستعمل بعض الصيغ دون بعضها الآخر، أو يستعمل أدوات معينة دون أخرى"[٢١٣].

وهذا التميز أو التفرد الأسلوبى - الذى يتميز به المستوى الفنى من الكلام - هو ما عبر عنه البلاغيون القدامى بحسن التخير للفظ، حتى إن بعضهم قد قصر البلاغة على حسن التخير.

وهذا ما انتهى إليه كلام عبد القاهر فى تحقيق القول على البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة وكل ما شاكل ذلك، حيث ينتهى كلامه فى هذا المقام إلى أنه (**لا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن تأتى المعنى من الجهة التى هى أصح لتأديته، وتختار له اللفظ الذى هو أخص به...**)[٢١٤].

بل إنه ينفى الفضيلة عن الكلام "حتى ترى فى الأمر مصنعا وحتى تجد إلى التخير سبيلا"[٢١٥].

ويخص عبد القاهر الصيغ من بين معانى النحو بجانب كبير من اهتمامه بل إنه يبنى نظريته فى النظم على حسن التخير للصيغ ومعانى النحو فيقول: "لا نعلم شيئا يبتغيه الناظم بنظمه غير أن ينظر فى وجوه كل باب وفروقه، فينظر فى الخبر إلى الوجوه التى تراها فى قولك (**زيد منطلق**)، (**وزيد ينطلق**) و(**ينطلق زيد**) و(**منطلق زيد**) ، (**وزيد المنطلق**) و(**المنطلق زيد**) (**وزيد هو المنطلق**) وفى (**الشرط والجزاء**) إلى الوجوه التى تراها فى قولك (**إن تخرج أخرج**) و(**إن خرجت خرجت**) و(**إن تخرج فأنا خارج**). (**وأنا خارج إن خرجت**) وأنا إن خرجت (**خارج**) وفى (**الحال**) إلى الوجوه التى تراها فى قولك (**جاءنى زيد مسرعا**) و(**جاءنى يسرع**) و(**جاءنى وهو مسرع أو هو يسرع**) و(**جاءنى وقد أسرع**) فيعرف لكل من ذلك موضعه، ويجىء به حيث ينبغى له[٢١٦]. ثم يقول"... هذا هو السبيل، فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا، إن كان صوابا، وخطؤه إن كان خطأ، إلى (**النظم**)، ويدخل تحت هذا الاسم، إلا وهو معنى من معانى النحو قد أصيب به موضعه، ووضع فى

---

(٢١٣) د/ شكرى عياد: مدخل إلى علم الأسلوب/ دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض ١٤هه - ١٩٨٢، ط ص ٢٨-٢٩، وانظر د/ البدراوى زهران: أسلوب طه حسين فى ضوء الدرس اللغوى الحديث. دار المعارف ١٩٧٧ ص ٢٢.

(٢١٤) دلائل الإعجاز/ بتحقيق محمود شاكر ص ٤٣.

(٢١٥) السابق ص ٩٨.

(٢١٦) دلائل الإعجاز بتحقيق محمود شاكر ص ٨١-٨٢.

حقه، أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه، واستعمل فى غير ما ينبغى له، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل، إلى معانى النحو وأحكامه، ووجدته يدخل فى أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه"[٢١٧].

وتعريف البلاغة بأنها حسن التخير للفظ قد قال به بلاغيون آخرون غير عبد القاهر كذلك حيث عرّفوها بأنها "تخير اللفظ فى حسن الإفهام"[٢١٨].

ويعرف ابن وهب البلاغة بأنها "القول المحيط بالمعنى المقصود، مع اختيار الكلام، وحسن النظام وفصاحة اللسان".

ثم يقول:

"وإنما أضيف إلى الإحاطة بالمعنى (**اختيار الكلام**) لأن العامىّ قد يحيط قوله بمعناه الذى يريد، إلا أنه بكلام مرذول من كلام أمثاله فلا يكون موصوفا بالبلاغة"[٢١٩] فابن وهب يجعل سمة الاختيار هى السمة المفرّقة بين الكلام البليغ وغيره.

ومن ثم نتبين من كلام عبد القاهر وغيره من البلاغين والنقاد أن المستوى الفنى أو البلاغى من المعانى التى تدل عليها الصيغ أساسه الأول هو حسن التخير للصِيغة وموافقتها موضعها من الكلام.

كما يتبين لنا من خلال كلام عبد القاهر السابق أن الأساس الذى تتم عملية الاختيار بناء عليه، هو مراعاة الفروق بين المعانى الوظيفية لتلك الصيغ التى تشترك فيما بينها فى الدلالة على معنى ما، وهذا هو ما يقصده عبد القاهر بالنظر فى وجوه كل باب وفروقه؛ فالوجوه هى البدائل التى يتم الاختيار بينها فى كل باب من أبواب المعانى بحسب الفروق الدلالية التى تمتاز بها كل صيغة عن الأخرى.

ويتقدم بنا عبد القاهر خطوة أخرى حيث يفاضل بين المعانى على أساس ما يقع من تخير لألفاظها، فيقول: "اعلم أنه إذا كان بينا فى الشىء أنه لا يحتمل إلا الوجه الذى هو عليه حتى لا يشكل - وحتى لا يحتاج فى العلم بأن ذلك حقه وأنه الصواب -

---

(٢١٧) السابق ص ٨٢ - ٨٣.

(٢١٨) انظر البيان والتبيين ٦٣/١.

(٢١٩) ابن وهب الكاتب - البرهان فى وجوه البيان - ١٦٣.

إلى فكر وروية؛ فلا مزية. وإنما تكون المزية ويجب الفضل إذا احتمل فى ظاهر الحال غير الوجه الذى جاء عليه وجها آخر، ثم رأيت النفس تنبو عن ذلك الوجه الآخر، ورأيت للذى جاء عليه حسنا وقبولا تعدمهما إذ أنت تركته إلى الثانى"[٢٢٠].

فعبد القاهر يفرق هنا بين نوعين من المعانى:

الأول: المعنى الإجبارى أو العادى.

الثانى: المعنى الاختيارى أو الفنى.

فالمعنى الأول: هو ما يجبرك على لفظه، فلا ترى فى الأمر مصنعا، ولا تجد للتخير سبيلا، على حد عبارة عبد القاهر[٢٢١].

وذلك أن من المعانى ما هو سطحى ساذج، ومكشوف واضح، له صيغة واحدة لا تشترك مع غيرها فى الدلالة عليه، وذلك كما لو أردت أن تعبر عن حضور زيد فى الماضى فتقول **(حضر)**.

فمثل هذا ونحوه من المعانى الوظيفية قد لا يستطيع المبدع التعبير عنه إلا بصيغة واحدة لا يحتمل المعنى غيرها، أما المعنى الفنى أو البلاغى، فمداره على حسن الاختيار للصيغ والألفاظ، فالمعانى الفنية معان دقيقة اختيرت صيغها وألفاظها من بين بدائل عديدة يمكن أن تعبر عن أصل المعنى المراد أو عن المعنى فى أبهى صورة، وأحلى حلة، وما يكون أكثر مواءمة وموافقة للمعنى الفنى الدقيق الذى يريد أن يعبر عنه أو يبالغ فيه أو يعمقه أو يعرضه فى صورة طريفة لم يسبق إليها.

والأمثلة على ذلك كثيرة يأتى ذكرها، والمقصد أن نبين أن الأساس الأول الذى يبنى عليه المعنى الفنى والبلاغى وتوظف به الصيغ توظيفا بلاغيا إنما هو الاختيار بين البدائل وبين الأشباه والنظائر[٢٢٢].

وذلك نتيجة لما سبق أن رجحه البحث فى الفصل الخاص بالحديث عن تعدد المعنى من أن التطابق التام يكاد يكون منعدما أو نادرا بين الصيغ؛ فالصيغ التى تبدو وكأنها مترادفة - فى حالة الإفراد - لا بد أن يظهر بينها فى الغالب بعض الفروق الدلالية الدقيقة التى تميز بين تلك الصيغ المتشابهة أو المتقاربة عند

---

(٢٢٠) السابق ٢٨٦.

(٢٢١) دلائل الإعجاز ص ٩٨.

(٢٢٢) هذا النوع من الاختيار يعرف فى الدراسات الأسلوبية الحديثة بالاختيار الاستبدالى انظر د/ علم الأسلوب ص ١٠٢.

التركيب بحيث لا تكاد تتشابه تلك الصيغ إلا فى حالة الإفراد فقط؛ بينما يظهر تميزها واستقلالها الدلالى واضحا فى حالة التركيب؛ ومن ثم يأتى دور المبدع فى ضرورة التأنى والوقوف للموازنة بين تلك الصيغ التى تبدو مترادفة أو متقاربة لاختيار الصيغة الأكثر مناسبة لسياقها.

ومن ثم فهو يراعى فى اختياره تلك الأسس التى سبق الإشارة إليها فى الباب الأول من المناسبة بين المبنى والمعنى من حيث الزيادة والنقصان، ومن حيث اختلاف السياقات والتراكيب.

وذلك أن غاية المشتغل بالبيان أن يفصح عن دقيق المعنى بدقيق اللفظ المطابق له الفارق له عن معنى سوى ما أراده وقصد إليه، فعامة المتكلمين باللغة من غير البيانيين لا يكادون يفرقون فى كلامهم بين دلالة الاسم ودلالة الفعل، ولذا يهتم عبد القاهر بتأكيد الفارق بينهما فيقول:

"وبيانه أن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشىء من غير أن يقتضى تجدده شيئا بعد شىء.

وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضى تجدد المعنى المثبت به شيئا بعد شىء"(٢٢٣).

ويوضح ذلك عبد القاهر بضرب أمثلة له فيقول: فإذا قلت: (**زيد منطلق**)، فقد أثبت الانطلاق فعلا له، من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئا فشيئا، بل يكون المعنى فيه كالمعنى فى قولك: (**زيد طويل**) و(**عمرو قصير**): فكما لا تقصد هنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ويحدث، بل توجبهما فقط، وتقضى بوجودهما على الإطلاق، كذلك لا تتعرض فى قولك: (**زيد منطلق**) لأكثر من إثباته لزيد. وأما الفعل، فإنه يقصد فيه إلى ذلك فإذا قلت: (**زيد ها هو ذا ينطلق**) فقد زعمت أن الانطلاق يقع منه جزءا، وجعلته يزاوله ويزجيه"(٢٢٤).

إذا، كل من الاسم والفعل هنا يشتركان فى الدلالة على الانطلاق، ولكن المبدع الواعى بدلالة الألفاظ التى يقتضيها النظام اللغوى هو الذى يختار الصيغة المناسبة للمعنى الدقيق الذى يريده، وهذا المعنى الدقيق لا يعبر إلا صيغة واحدة، وهذا بناء على القول بمنع الترادف الصيغى.

---

(٢٢٣) دلائل الإعجاز ص ١٧٤.

(٢٢٤) دلائل الإعجاز ص ١٧٤.

ويستشهد عبد القاهر لما قرره بشاهدين، أحدهما يلطُف فيه إدراك الفرق بين الاسم والفعل، والثانى الفرق فيه واضح بحيث لا يخفى. فاستشهد لما يلطف بقول الشاعر:

لا يألفُ الدرهمُ المضروبُ صرَّتنا لكن يمرُّ عليها وهو منطلقُ

ثم يعلق عليه بقوله:

"هذا هو الحسن اللائق بالمعنى، ولو قلته بالفعل: "لكن يمر عليها وهو ينطلق "لم يحسن".

ثم يمثل لما لا يخفى بقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾ (الكهف: ١٨) ثم يعلق عليه قائلا: "فإن أحدا لا يشك فى امتناع الفعل ههنا، وأن قولنـــــا:﴿كَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ لا يؤدى الغرض، وليس ذلك إلا لأن الفعل يقتضى مزاولة وتجدد الصفة فى الوقت، ويقتضى الاسم ثبوت الصفة وحصولها من غير أن يكون هناك مزاولة وتزجية فعل، ومعنى يحدث شيئا فشيئا، ولا فرق بين "وكلبهم باسط" وبين أن يقول: "وكلبهم واحد" مثلا فى إنك لا تثبت مزاولة، ولا تجعل الكلب يفعل شيئا، بل تثبته بصفة هو عليها. فالغرض إذن تأدية هيئة الكلب"[٢٢٥].

فتأمل تلك التحليلات للأساليب يكشف بوضوح عن أن الصيغة لا تكتسب المزية فى نظر البلاغيين إلا إذا كانت هناك صيغة أخرى صالحة لأداء وظيفتها العامة من جهة، وقاصرة عن أداء ما تؤديه فى سياقها الخاص من جهة أخرى. ومن ثم كانت المقارنة بين الصيغتين الأصلية أو المنتقاة والبديلة أو المفترضة هى المنهج الذى سار عليه البلاغيون فى تحليل مزية الأولى[٢٢٦]. فعبد القاهر يقف أمام الصيغة التى أتى بها المبدع فى كلامه ويقارنها بما يشترك معها فى أداء أصل المعنى أو إن شئت قلت: إنه يبحث عن البدائل أو الإمكانات التى يتيحها نظام اللغة فى مثل هذا المقام والتى يصح بها كلام المتكلم إذا ما أراد مجرد الصحة اللغوية المعبرة عن أصول المعانى دون دقيقها وخاصيّها.

فقول الشاعر: (**لكن يمر عليها وهو منطلق**) يصح فيه - من جهة الوضع اللغوى المعبر عن إثبات الانطلاق فى هذا البيت -، أن نعبر عنه مثلا بصيغة الفعل المصارع (**ينطلق**)؛ هذا إذا ما أردنا مجرد الصحة اللغوية، أو الدلالة النمطية؛ أما

---

(٢٢٥) دلائل الإعجاز ص ١٧٥.

(٢٢٦) د/ حسن طبل/ المعنى فى البلاغة العربية ص ٢٣٠.

من جهة الدلالة الفنية فلا شك أن صيغة اسم الفاعل التى اختارها الشاعر هى أكثر صوابا من الناحية الفنية.

ولذا ينظر عبد القاهر فى اللفظ المختار ويقارن بينه وبين بديله أو شبيهه فى هذا الموضع بناء على المعانى الوظيفية المستقرة لتلك الصيغ.

ولما كان المراد فى البيت هو المبالغة فى الإنفاق حتى لا يكون للدرهم قرار بصرة المثنى عليه كذلك، كان الأنسب أن يعبر بالاسم **(منطلق)** الذى يفيد ثبوت المعنى من غير أن يقتضى تجدده شيئا بعد شىء؛ لأنه لو اقتضى ذلك بدلالة الفعل لكان فيه دليل على أن القرار غير دائم ولكنه ينقطع ويتجدد مما ينافى تمام المبالغة فى نفى القرار عن الدرهم بصرة الممدوح، وهذه الطريقة هى أكثر مبالغة فى تأدية المعنى وأوفى بحق البلاغة من الطريق الأخرى، فكان الحكم لها، والقضاء برجحانها على غيرها.

وعلى نحو ذلك مضى عبد القاهر فى المقارنة بين التعبير بالاسم والتعبير بالفعل فى قوله تعالى: **﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾** (الكهف:١٨)

ويرى عبد القاهر أن الفرق هنا بين التعبير بالاسم والفعل واضح بين؛ فإن أحدا لا يشك فى امتناع الفعل ههنا، وإن قولنا: "كلبهم يبسط ذراعيه" لا يؤدى الغرض.

ويعلل ذلك بما للاسم والفعل من وظيفة محددة، لدى العارفين باللغة.

ولقد حظى التفريق بين دلالتى الاسم والفعل باهتمام كثير من البلاغين(٢٢٧).

كما يدخل فى الاختيار كذلك وقوف البلاغيين على المناسبة بين المبنى والمعنى من حيث الزيادة والنقصان، وقد سبق أن بينت ذلك بالتفضيل فى المبحث الخاص بالعلاقة بين الصيغة والمعنى.

وثمة إشارات تأتى بعد ذلك متناثرة من نحو وقوف السكاكى وغيره من البلاغيين حول الاستغراق فى المفرد والجمع ليقرر أن استغراق المفرد يكون أشمل من استغراق الجمع، ثم يقول "ومن هذا يعرف لطف ما يحكيه تعالى عن زكريا عليه

---

(٢٢٧) وذلك عند حديثهم عن الحالة التى تقتضى كون المسند اسما أو فعلا. وسيأتى التعرض لبعض ما ذكروه من الأمثلة عند تطبيق أسس التوظيف البلاغى للصيغة على الأسماء والأفعال والصفات. انظر على سبيل المثال: المفتاح/ المطبعة الأدبية ص ١١٢ الإيضاح بتعليق د/ خفاجى ص ١٧٧، ٢٤١- ٢٤٥، الإشارات والتنبيهات ص ٦٥، شروح التلخيص٢/١٩-٢٠-٢٥-٣٠، شرح عقود الجمان١/١٠٦ مفتاح العلوم ص ١٢٢-ط٢ مصطفى الحلبى-١٤١١هـ ١٩٩٠م، وانظر التبيان للطيبى١/١٦٠.

السلام: ﴿ رب إني وهن العظم مني﴾ (مريم: ٤). دون وهنت العظام، حيث توصل باختيار اللفظ إلى الإطناب فى معناه.

وهذا - إن دل على شيء - فإنما يدل على مدى وعى هؤلاء البلاغيين بما بين الصيغ من فروق دلالية، حيث استطاعوا أن يفيدوا من تلك الفروق فى تحليلاتهم البلاغية لتلك الصيغ القائمة على اعتبار الاختيار بين تلك الصيغ - بما تحمله من تلك الفروق الدلالية - هو الأساس الأول للتوظيف الفنى أو البلاغى لصيغة الكلمة.

وعلى أساس الوعى بهذا التمايز الدلالى بين البدائل المتشابهة فى جانب الصيغ تتلاقى الدراسات الأسلوبية الحديثة مع الدراسات البلاغية القديمة فى تراثنا البلاغى فى هذه النقطة.

وقد سبق أن عرضنا لإسهام الدراسات الأسلوبية الحديثة في ذلك في بداية كتابنا هذا ، بما يغني عن إعادة الكلام فيه.

النماذج التفصيلية للاختيار فى الصيغ

تمهيد

يقوم البحث هنا بعرض عدد من النماذج التى تم توظيف الصيغ فيها توظيفا بلاغيا على أساس الاختيار، وذلك بغية الوقوف على الإعجاز الأسلوبي لتلك الصيغ فى سياقاتها القرآنية الرفيعة ، مراعيا فى تحليلها ما انتهى إليه البحث فى فصوله السابقة، ومنتفعا بتحليلات البلاغيين فى مباحث البلاغة النظرية، وتحليلات المفسرين وشراح الحديث والدواوين الشعرية التى كانت أوسع أفقا- وأكثر تناولا للعديد من الصيغ المتنوعة التى وردت فى سياقات مختلفة- من تلك الدراسة النظرية التى اقتصرت - غالبا - على عدد محدود من النماذج، فضلا عن عدم تجاوزها - غالبا - صيغتى الاسم والفعل إلى ما يندرج تحت كل منهما من صيغ عديدة حفلت بها كثير من النماذج الأدبية الرفيعة مع توظيفها توظيفا فنيا وبلاغيا يصل إلى حد الإعجاز فى نماذجه القرآنية، وإلى درجات عالية من البلاغة فى ما عداه من النماذج، مما سيعرض البحث أمثلته فيما يلى.

١ - اختيار صيغ الاسم:

أحب أن أشير هنا إلى أمر يتعلق بطبيعة المعالجة للأمثلة التى يتعرض لها البحث فى هذا الموضع، وهى أن البحث قد عنى بعرض أمثلة الاختيار للصيغة المختارة دون تقيد بالبديل المطروح لها فى تلك السياقات؛ وذلك لأن البدائل للصيغة الواحدة قد تتعدد، وتتنوع؛ فالمصدر مثلا قد يحل محله الفعل أو اسم الفاعل، أو اسم المفعول، أو غير ذلك على نحو ما سبق بيانه فى مبحث الدلالة بين تعدد الصيغة وتعدد المعنى.

ومن ثم سيكون العنوان لتلك المعالجة مثلا (**اختيار صيغة المصدر**) دون أن نقيد ذلك بالبديل، وذلك تفاديا للتكرار، وكثرة التقسيمات والعناوين، ولكيلا يتشتت بحث الظاهرة الواحدة فى أكثر من موضع.

كما أشير هنا إلى أن هذا المنهج هو ما سوف نتبعه كذلك عند عرض أمثلة العدول، والتكرار.

وقد استغنيت بالإشارة هنا عن إعادة ذلك فى موضعه.

اختيار صيغة المصدر (**فعلان**)

فمن ذلك ما جاء فى قوله تعالى: ﴿**وَمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ (العنكبوت: ٦٤).

حيث جاء اختيار صيغة (**الفعلان**) للتعبير عن الحياة فى الدار الآخرة بما تشتمل عليه من حركة ونشاط وابتهاج وخفة النفس واهتزازها مع دوام ذلك واستمراره وتجدد ألوانه، وذلك فى مقابل الحياة الدنيا - حياة اللهو واللعب - بما تشتمل عليه من انكسار وسأم من رتابة صور الحياة وتكرارها بلا تجدد، مع سرعة انقطاع لذاتها، وزوال نعيمها، وتحول عافيتها.

ولذا قال الزمخشرى "وفى بناء الحيوان زيادة معنى ليس فى بناء الحياة وهى ما فى بناء فعلان من معنى الحركة والاضطراب كالنزوان والنغصان واللهبان وما أشبه ذلك، والحياة حركة كما أن الموت سكون فمجيؤه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة فى معنى الحياة ولذلك اختيرت على الحياة فى هذا الموضع المقتضى للمبالغة[٢٢٨].

من أمثلة اختيار المصدر فى الشعر

ومما جاء فى الشعر من أمثلة اختيار المصدر، قول الخنساء:

ترتع ما رتعت، حتى إذا ذكرت فإنما هى إقبال وإدبار

قال الإمام عبد القاهر "جعلها لكثرة ما تقبل وتدبر، ولغلبة ذاك عليها، واتصاله منها، وأنه لم يكن لها حال غيرها، كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار"[٢٢٩].

ومن ثم فقد جعلتها حقيقة الإقبال والإدبار وكأنها قد تمحضت إقبالا وإدبارا، وقد حسن وصفها بذلك للدلالة على تكرار هذا الفعل منها وغلبته عليها، وملازمتها له، وثبوتها عليه؛ حتى لم يكن لها شغل غيره؛ ومن ثم حسن اختيار صيغة المصدر هنا على ما عداها كصيغة الفعل، كما لو قالت: فإذا هى تقبل وتدبر.

ومن ذلك قول النابغة:

فعد عما ترى، إذ لا ارتجاع له وانم القتود على عيرانه أجد[٢٣٠]

حيث استخدم الشاعر صيغة المصدر (**ارتجاع**) وهى من الفعل (**افتعل**) الذى يأتى لمعان منها المبالغة كما فى هذا السياق، وقد زاد هذه المبالغة اختيار صيغة المصدر منفية لنفى الارتجاع فى حقيقته وأصله، وجاء به على صيغة الافتعال ليدل على المبالغة فى نفى رجوع هذا الشىء حتى مع الاجتهاد والمبالغة فى

---

(٢٢٨) انظر الكشاف ١٥٩/٣ وانظر أبو السعود ٤٧/٧، والنظر ما سبق نقله عن سيبويه فى معنى الفعلان فى الفصل الخاص بالمناسبة بين الصيغة والمعنى.

(٢٢٩) دلائل الإعجاز ص ٣٠٠ بتحقيق الشيخ محمود شاكر.

(٢٣٠) ديوان النابغة ص ١٠.

إرجاعه. ومن ثم تميز يظهر تلك الصيغة على غيرها من الصيغ كالرجوع أو الإرجاع.

اختيار صيغة اسم المرة

من المواضع التى وظفت فيها صيغة اسم المرة توظيفا بليغا قول الله تعالى فى سورة الدخان:﴿ **كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ**﴾ (الدخان ٢٥-٢٧ وفى سورة المزمل: ﴿**وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً * إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً * وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً**﴾ (المزمل ١١:-١٣) حيث جاء بناء النعمة فى الآيتين بناء اسم المرة، وكان يمكن مجيؤه على غيرها من المصادر كالتنعم أو الإنعام أو النعمة بالكسر أو غير ذلك، إلا أن الآية قد آثرت هذه الصيغة، قال الرازى "والنعمة والتنعم وبناؤها بناء المرة من الفعل كالضربة والشتمة" ولم يزد الزمخشرى فى هذا الموضع على أن بين أن "النعمة بالفتح التنعم، وبالكسر الإنعام، وبالضم المسرة" وتابعه على ذلك أغلب المفسرين بعده، ناقلين كلامه بنصه(٢٣١).

وزاد الألوسى فى موضع آخر(٢٣٢) على كلام الزمخشرى فى قوله تعالى:﴿ **كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ**﴾ (الدخان: ٢٥-٢٧) فقال "واختير ههنا تفسير النعمة بالشىء المنعم به لأنه أنسب للترك، وهى كثيرا ما تكون بهذا المعنى" وذلك بعد نقله لكلام الراغب فى مجيئها على بناء المرة.

وهذا التعليل ليس تعليلا لمجيء بنائها على صيغة المرة، كما أشار إليه الراغب، وإن كان هو الآخر لم يعلل كذلك كجملة المفسرين: لم جاءت الكلمة على هذه الصيغة دون غيرها من صيغ المصادر؟.

والذى أراه فى تعليل ذلك – والله أعلم أن وجه الإفراد فى سورة الدخان شبيه بما وجه به الزمخشرى الإفراد فى قوله تعالى:﴿ **عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ**﴾ (التكوير:١٤)

---

(٢٣١) انظر المفردات ص٤٩٩، الكشاف١٥٥/٤، وانظر ٤٣٢/٣، وانظر مفاتيح الغيب ١٤٩/١٤، ٨٠٩/١٥، روح المعانى ١٠٧/٢٩، المحرر الوجيز٧٢/٥، ٣٨٩، الدر المصون ١١٤/٦، ٤٠٧، بصائر ذوى التمييز ص ٩٠.

(٢٣٢) انظر روح المعانى ١٢٣/٢٥.

وحاصله أنه "من عكس كلامهم الذى يقصدون به الإفراط فيما يعكس عنه... إلخ كلامه"(٢٣٣).

فكأن المتكلم هنا سبحانه يتبرأ من التزيد عليهم وأنه يستقل كثير نعمه على عباده فضلا أن يتزيد، فكأن قال (**ورب نعمة كانوا فيها فاكهين**)، فيقول السامع (**بل كانوا فى نعم كثيرة**)، فيكون من باب تقرير المخاطب بالحجة وإلزامه بها بطريق غير مباشر، وهو من البلاغة بمكان.

فضلا عما فى الإفراد بصيغة المرة من الدلالة على كونها نعمة محتقرة لدى الرب لا وزن لها عنده لأنها نعمة الدنيا لا نعمة الآخرة، وإن كانت عند المخاطب بمكان عظيم.

وقد يقال إن المقام هنا مقام تكثير النعم لا تقليلها لابتدائه بكم الخبرية المفيدة للكثرة؛ فنقول لذا فإن النكتة فى الإفراد هى احتقار تلك النعم على كثرتها وتوحيدها يدل على أنها فى مجموعها لا تكاد توازى نعمة مفردة من نعم الآخرة.

ولعل هذا هو الوجه فى مجيئها على بناء المرة كذلك فى الموضع الثانى فى قوله تعالى فى سورة المزمل: ﴿**وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً**﴾ (المزمل :١١) فكأنه قال "ذرنى وهولاء المكذبين أصحاب تلك النعمة المحتقرة نعمة الدنيا ومهلهم قليلا حيث تزول عنهم تلك النعمة فى الآخرة، فإنما هى نعمة واحدة يتنعمون بها فى الدنيا ولذا فقد قرر رسول الله ﷺأن لهم الدنيا، وأن لنا الآخرة" ويزداد الإحساس بجمال صيغة المرة فى هذا الموضع بمقابلتها بما أعده الله تعالى لهؤلاء المكذبين من العذاب فى الدار الآخرة مجموعا لا مفردا مما يدل على أنهم يضاعف لهم العذاب فى الآخرة جزاء إعراضهم عن شكر نعمة المنعم فى الدنيا، ولذا عقب الله تعالى تلك الآية بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً *وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً**﴾ ومن ثم يظهر التقابل بين هذه النعمة الحقيرة المفردة، وما جلبته عليهم من صنوف العذاب وألوانه المتعددة.

كما يظهر جليا فى هذين الموضعين دور صيغة المرة فى الدلالة على التحقير، وعكسه وهو المبالغة والتكثير كما فى الموضع الأول.

ومن أمثلة ذلك فى الشعر قول ابن المعتز:

وإنى على إشفاق عينى من العدى لتجمح منى نظرة ثم

---

(٢٣٣) انظر الكشاف٤/١٨٩ وسيأتى بتمامه فى اختيار صيغة المفرد.

قال عبد القاهر معلقا عليه: "فترى أن هذه الطلاوة وهذا الظرف، إنما هو لأن جعل النظر "يجمح" وليس هو لذلك. بل لأن قال أول البيت "وإنى حتى اللام فى قوله "لتجمح" ثم قوله: "منى" ثم لأن قال "نظرة" ولم يقل "النظر" مثلا ثم لمكان "ثم" فى قوله: "ثم أطرق" وللطيفة أخرى نصرت هذه اللطائف وهى اعتراضه بين اسم "إن" وخبرها بقوله: "على إشفاق عينى من العدى"[٢٣٤].

فاختيار الشاعر لصيغة اسم المرة(**نظرة**) دون المصدر(**نظر**) جاء مناسبا لمقام الخوف والإشفاق من العدى، حيث يسترق النظر، فناسب ذلك التعبير باسم المرة (**نظرة**)

وبنحوه كذلك قول المجنون:

وإنى لأستغشى وما بى نعسة لعل خيالا منك يلقى خياليا[٢٣٥]

حيث جاء التعبير فيه باسم المرة منفيا متجاوبا مع مقام المبالغة فى الأرق والسهاد لكثرة الوجد والشوق؛ ومن ثم يكون استغشاء الشاعر وطلبه للنوم واجتهاده فى تحصيله مجرد محاولة فاشلة منه لا للرغبة فى النوم بل لتمنى أن يطوف خيال محبوبته بخياله؛ ومن ثم يبدو تميز تلك الصيغة على نظائرها كـ (**نعاس**) مثلا.

اختيار صيغة اسم الفاعل

من أمثلة اختيار اسم الفاعل ما سبق بيانه في قوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ (الملك: ١٩).

ومنه في أشعار العرب قول النابغة فى اعتذاره إلى النعمان:

فإنك كالليل الذى هو مدركى وإن خلت أن المنتأى عنك واسع [٢٣٦]

آثر النابغة فى هذا البيت صيغة اسم الفاعل (**مدرك**) على صيغة المضارع (**يدرك**) مثلا، وذلك لأنه ليس بصدد مجرد إثبات الحدث (**الإدراك**)، وإنما هو بصدد إثبات وقوع ذلك الإدراك لا محالة، ومن ثم فالتعبير عهنا باسم الفاعل قد دل على زيادة وقوع الحدث ودل على ثبات هذا الوصف أيضا وعدم تحوله.

---

(٢٣٤) دلائل الإعجاز بتحقيق شاكر ص ٩٨-٩٩.

(٢٣٥) انظر أسرار البلاغة لعبد القاهر ص ٢٧٦ بتحقيق رينر/ استانبول مطبعة المعارف س ١٩٥٤.

(٢٣٦) ديوان النابغة/ شرح وتقديم عباس عبد الساتر ط دار الكتب العلمية ص ٥٦.

وقد ناسب ذلك السياق أتم مناسبة حيث يقول النابغة فى الأبيات قبله:

لكلفتنى ذنب امرىء، وتركته كذى العر يكوى غيره وهو راتع

فإن كنت لا ذو الضغن عنى مكذب ولا حلفى على البراءة نافع

ولا أنا مأمون بشىء أقوله وأنت بأمر لا محالة واقع

فإنك كالليل الذى هو مدركى .....

أى كأنه يقول له لئن كان الأمر كذلك ولا ينفعنى اعتذارى ولا حلفى لديك، فإنك سوف تدركنى بعقابك لا محالة، فإدراكك لى ثمة ثابت ثبوت الليل فى مجيئه بلا تخلف. وقد حسن التعبير هنا اسم الفاعل فى قوله (**مدركى**) بعد تعبيره باسم الفاعل.

فى الأبيات السابقة، حيث رتب ثبوت إدراكه له بعقوبته على ثبوت وقوع أمر النعمان فيه، وعدم انتفاعه بحلفه واعتذاره.

ومن ذلك قوله فى قصيدة أخرى:

ولست بمستبق أخا لا تلمّه على شعث أى الرجال المهذب[٢٣٧]

حيث اختار صيغة اسم الفاعل (**مستبق**) على غيرها من الصيغ كالمضارع مثلا؛ وذلك للغرض السابق نفسه، وهو الدلالة على الاتصاف بهذا الفعل على جهة الثبات، وقد سبقه بأداة النفى (**لست**) ليدل على عدم ثبات ذلك واطراده. وقد جاء متسقا مع غرض الاعتذار فى القصيدة ليقرر للنعمان أن المودة الصادقة لا تذهب بها الهنات، ولا تمنع من دوامها، وفيه ترقيق لقلب النعمان وتهوين عليه ما ساءه منه.

من أمثلة الاختيار المتكلف لاسم الفاعل قول البستى:

إذا ملك لم يكن ذا هبه فدعه فدولته ذاهبه[٢٣٨].

حيث تعمد الشاعر الإتيان بصيغة اسم الفاعل (**ذاهبة**) لإحداث إيقاع متكلف، وليس هذا تكرار للصيغة لأن (**ذاهبة**) الأولى بمعنى صاحب هبة.

---

(٢٣٧) السابق ص ٢٨.

(٢٣٨) انظر نهاية الإيجاز ص ١٣٢.

أو كقول البستى أيضا:

كلكم قد أخذ الجام ولا جام لنا ما الذى ضر مدير الجام لو جاملنا[٢٣٩]

حيث أتى بصيغة الماضى (**جاملنا**) ليجانس قافية البيت الأول (**جام لنا**) متكلفا لأجل الإيقاع. ولا يحسن ذلك بغير استكراه ولا تكلف.

اختيار صيغة المبالغة

فمن ذلك صيغة (**فعّال**):

ومن أمثلتها ما ورد فى سورة الشعراء فى قصة موسى على لسان فرعون: **﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾** (الشعراء: ٣٤-٣٧)

حيث جاء التعبير بصيغة المبالغة سحّار فى هذا الموضع دالا على مقابلة الملأ وصف فرعون لموسى بالسحر وتأكيده على أنه يريد أن يخرجهم من أرضهم (**بسحره**) فناسب ذلك أن يقابلوا ذلك بالوصية بالإتيان بكل سحار عليم يفوق سحره سحر موسى.

وتتضح هذه النكتة حينما نقف على سياق القصة المشابه فى سورة الأعراف حيث يقول الله تعالى على لسان الملأ من قوم فرعون: **﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ* قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ* يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ﴾** (الأعراف: ١٠٩-١١٢).

وقد علل بعضهم مجيء صيغة المبالغة فى الشعراء دون الأعراف بان المبالغة فى الشعراء مناسبة لقول فرعون (**إن هذا لساحر عليم**)[٢٤٠].

ولكن يضعف من هذا التعليل أن الملأ قد وصف موسى كذلك فى الشعراء بأنه (**ساحر عليم**) وأرى أنه لم تأت المبالغة (**سحار**) فى سورة الأعراف؛ لأنه لم ينص على أن المحذور - وهو إخراج موسى لهم من أرضهم - إنما يقع (**بسحره**) فلم تذكر هذه الكلمة فى سورة الأعراف، ومن ثم لم تقابل بصيغة المبالغة (**سحار**) فى وصف السحرة، فكأن الملأفى هذا الموضع لم يتصور أن ما جاء به موسى - وهو ما

---

(٢٣٩) انظر نهاية الإيجاز ص ١٣٢.

(٢٤٠) انظر تفسير الرازى ١٢٠/١٢ والكرمانى ص ٨١.

وصفوه بكونه سحرا - يكون له من القوة والتأثير أن يخرجهم من أرضهم، فمن لا يحتاج إبطال سحره إلى الإتيان بمهرة السحرة. أما فى سورة الشعراء فإن الكلام فيها على لسان فرعون - لا الملأ - وهو يؤكد لهم أن معجزة موسى - عليه السلام - والتى سماها فرعون سحرا - تبلغ من القوة والتأثير أن يخرجهم موسى من أرضهم بها.

ومن ثم بالغوا له فى وصف السحرة الذين يوتى بهم لإبطال معجزة موسى عليه السلام.

ويمكن أن يقال إنه لما كان الواصف لموسى عليه السلام فى هذا الموضع بالسحر هو فرعون؛ لذا "جاءوا بكلمة الإحاطة وبصيغة المبالغة ليطيبوا قلبه، وليسكنوا بعض قلقه"(٢٤١).

ومن أمثلة الاختيار فى صيغ المبالغة أيضا اختيار صيغة المبالغة (**فُعَّال**):

من ذلك ما جاء فى قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام فى وصف حال قومه **﴿وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً﴾** (نوح: ٢٢)

و(**كُبَّاراً**) بناء مبالغة أبلغ من كبار بالضم والتخفيف"(٢٤٢)

قال الألوسى "**مَكْراً كُبَّاراً**" أى كبيرا فى الغاية فهو من صيغ المبالغة... وقد سمع بعض الأعراب الجفاة رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية فقال "ما أفصح ربك يا محمد"(٢٤٣).

وقد كان مكر قوم نوح من" الروءساء ومكرهم احتيالهم فى الدين وكيدهم لنوح، وتحريش الناس على أذاه، وصدّهم عن الميل إليه والاستماع منه"(٢٤٤).

---

(٢٤١) الرازى ١٢٠/١٢، وأحب أن أنبه إلى أن أكثر المفسرين قد انشغلوا فى هذا الموضع بمجىء الكلام المذكور على لسان فعون فى سورة الشعراء؛ وعلى لسان الملأ فى سورة الأعراف، فانشغلوا بذلك عن تأمل ما ذكرت، وقد التفت بعضهم إلى اختلاف الصيغة فى السورتين ولكنه لم يحسن توجيه ذلك الاختلاف. (انظر على سبيل المثال الكشاف٨١/٢، الألوسى ٢٢/٩-٢٣، مفاتيح الغيب ٢٢٨/٧، مسائل الرازى ص ٩٧.

(٢٤٢) انظر الدر المصون٣٨٥/٦، وانظر الكشاف ١٤٣/٤، والمحرر الوجيز ٣٧٥/٥ ٣٧٦، روح المعانى ٧٦/٢٩ ٧٧.

(٢٤٣) انظر الألوسى٧٦/٢٩.

(٢٤٤) انظر الكشاف١٤٣/٤.

وإذا كان هذا هو مكرهم فلا جرم كان هذا المكر مكرا كبارا، ولذا آثر القرآن هذه الصيغة المشددة دون الصيغة المخففة كبارا أو كبيرا للدلالة على شدة هذا المكر وقوته.

فإذا أضفنا إلى ذلك مجيء تلك الصيغة موافقة للفاصلة التى قبلها وأغلب الفواصل بعدها، فلا جرم كانت تلك الصيغة قد وظفت توظيف بليغا حسن به الشكل والمعنى فضلا عما دلت عليه من تلك النكتة البليغة.

اختيار الصفة المشبهة

من ذلك ما جاء فى قول الله تعالى فى وصف قوم نوح **﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ﴾** (الأعراف:٦٤)

حيث آثرت الآية التعبير عن وصف هؤلاء المكذبين بالصفة المشبهة على غيرها من الصيغ كاسم الفاعل مثلا (**عامين**).

ونستطيع أن نتبين سر اختيار هذه الصيغة إذا ما راجعنا سياق الآية من أوله، قال تعالى: **﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾** (الأعراف: ٥٩-٦٠)

حيث نجد أن الملأ من قوم نوح قد برروا تكذيبهم لنبيهم بادعائهم ضلاله، وكان طريق إثبات هذه الدعوى الكاذبة هو افتراؤهم عليه بإثبات رؤيتهم له فى ضلال مبين، ولما كان أساس تلك الدعوى الكاذبة هو ادعاء الرؤية المبالغ فى إثباتها بإن واللام، واستخدم حرف الجر(**فى**) الدال على انغماسه فى الضلال وإحاطته به، فضلا عن ادعاء كون ذلك الضلال بينا واضحا - أقول لما كان أساس تلك الدعوى هو تلك الرؤية الكاذبة المبالغ فيها على هذا النحو؛ ناسب هذا السياق أن يبالغ فى وصف هؤلاء المكذبين بوصف مقابل لذلك بطريقة أبلغ مما يقتضى إثبات العمى لهم بصيغة دالة على الثبات واللزوم تناسب ما هم عليه من انطماس بصائرهم.

ولذا قال الزمخشرى: "(**عمين**) عمى القلوب غير مستبصرين، وقرئ (عامين)، والفرق بين العمى والعامى أن العمى يدل على عمى ثابت والعمى على عمى حادث"(٢٤٥).

(٢٤٥) الكشاف ٦٨/٢وانظر الألوسى ١٥٤/٨، الدر المصون ٢٨٩/٣.

ويوضح الطيبى ذلك ويعلله بقول: "الدلالة الصفة المشبهة على الثبوت... ولأن اسم الفاعل دونها فى الدلالة على الثبوت"[٢٤٦].

اختيار صيغة (فعيل) بمعنى (مفعول)

من المعانى التى تأتى لها صيغة فعيل أن تكون بمعنى اسم المفعول[٢٤٧].

ومن المواضع التى اختيرت فيها صيغة فعيل على اسم المفعول: قوله تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (يس :٣٢)

وقوله تعالى ﴿إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ (يس :٥٣)

وقوله تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ (القمر: ٤٤)

فلفظ (**جميع**) فى هذه الآيات هو فعيل بمعنى مفعول فهو بمعنى (**مجموع**)[٢٤٨].

وقال الرازى فى قوله تعالى﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ فيه فائدتان: إحداهما الكثرة والأخرى الاتفاق. كأنه قال نحن كثير متفقون فلنا الانتصار. ولا يقوم غير هذه اللفظة مقامها من الألفاظ المفردة. إنما قلنا فيه فائدتان لأن الجمع يدل على الجماعة بحروفه الأصلية من"ج م ع" وبوزنه وهو فعيل بمعنى مفعول على أنهم جمعوا جمعيتهم العصبية"[٢٤٩].

ولعل فيما ذكره د/ محمود ياقوت فى التفرقة بين فعيل ومفعول ما ييسر الطريق إلى فهم سر الاختيار فى هذه الآيات حيث يقول "ولقد رأينا أن صيغة (**فعيل**) تأتى بمعنى (**مفعول**)، وبين الصيغتين فرق من حيث المعنى، وهو أن فعيلا أبلغ.. فإنه يقال لمن جرح فى أنملته (**مجروح**) ولا يقال (**جريح**) فعلى هذا (**كحيل**) أبلغ من (**مكحول**) [٢٥٠].

---

(٢٤٦) فتوح الغيب للطيبى تحقيق د/ جميل الحسين المحمود/١/٥٧٥.

(٢٤٧) انظر د/ على طلب/ صيغة فعيل واستعمالاتها ص ١٣.

(٢٤٨) انظر الكشاف ٣/٢٨٥، الدر المصون ٥/٤٨٣، روح المعانى ٢٣/٦.

(٢٤٩) انظر الرازى ٢٣/٦.

(٢٥٠) انظر د/ محمود سليمان ياقوت - ظاهرة التحويل ص ٧٨ ٧٩ - دار المعرفة الإسكندرية.

وهذا يعنى أن (**كحيلا**) وإن كانت بمعنى اسم المفعول إلا أن مجيئها على صيغة من صيغ المبالغة قد أفاد معنى المبالغة مع معنى المفعولية وهو ما سميناه من قبل بالتراكب الصيغى.

وفى رأيى أن السر فى ذلك هو - والله أعلم - أن صيغة فعيل لها ظلال وإيحاءات متعددة فهى تأتى للمبالغة، وتأتى صفة مشبهة وتأتى مصدرا وغير ذلك، فقد يكون السر فى اختيارها هو الإفادة من ظلال تلك الصيغة المتعددة المعنى، حيث يتسلل إلى المعنى الأصلى فى هذا الموضع - وهو دلالتها على معنى اسم المفعول (**مجموع**) - يتسلل معنى المبالغة، كما يتسلل معنى الصفة المشبهة الدالة على الثبات واللزوم.

فأقول إن هذه المعانى تتسلل إلى الصيغة وإن كانت هى فى نفسها ليست صيغة مبالغة ولا صفة مشبهة، ولكنها قد جاءت على وزن شبيه بأوزانهما ومن ثم توحى صيغتها بمعانى تلك الصيغ أيضا من المبالغة وثبات صفة الاجتماع لهم وغير ذلك.

وثمّة علة أخرى أراها لهذا الاختيار، وهى أن اسم المفعول يوحى بمعنى الحدث أكثر من الصفة المشبهة الدالة على ثبات الحدث وتأصله، فالصفات: عظيم كريم شريف، لا تدل على الحدوث بقدر ما تدل على تأصل الصفة فى صاحبها.

ولما كان المعنى المقصود فى تلك الآيات ونظائرها هو صفة الجمع نفسها لا حدث الجمع، لذا اختارت الآيات عن صيغة (**فعيل**) التى توحى بثبات الصفة وتأصلها أكثر من إيحائها بمعنى الحدث.

من ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿**فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ* وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ**﴾(الشعراء: ٥٣-٥٦).

حيث قرىء (**حذرون وحاذرون**) بالصفة المشبهة واسم الفاعل- قال الرازى: "أما الذى وصف فرعون به قومه فهو قوله (**وإنا لجميع حاذرون**) وفيه ثلاث قراءات حذرون، وحاذرون، وحادرون بالدال غير المعجمة.

واعلم أن الصفة إذا كانت جارية على الفعل وهى اسم الفاعل واسم المفعول - كالضارب والمضروب - أفادت الحدوث - وإذا لم تك كذلك - وهى المشبهة - أفادت الثبوت.

فمن قرأ (**حذرون**) ذهب إلى أنا قوم من عادتنا الحذر واستعمال الحزم.

ومن قرأ (**حاذرون**) فكأنه ذهب إلى معنى إنا قوم ما عهدنا أن نحذر إلا فى عصرنا هذا"[٢٥١].

فكأن قراءة الصفة المشبهة إنما جاءت لتعبر عن كون الحذر عادة لآل فرعون، أو هكذا يدعى فرعون ليكون ذلك عذرا يعتذر به إلى أهل المدائن عن ذلك الاحتشاد الهائل من فرعون وجنده لموسى ومن معه من المؤمنين. قال الزمخشرى: (**ونحن قوم من عادتنا التيقظ والحذر واستعمال الحزم فى الأمور فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى حسم فساده. وهذه معاذير اعتذر بها إلى أهل المدائن لئلا يظن به ما يكسر من قهره وسلطان**)[٢٥٢].

فعلى قراءة (**حذرون**) أفادت الآية كون الحذر صفة ثابتة لفرعون وآله، أو هكذا يدعى.

أما على قراءة (**حاذرون**) فإنها تدل على حدوث الحذر وتجدده لديهم وأن ثمة ما يقتضى تجدد هذا الحذر لديهم وهو ظهور شوكة موسى ومن معه[٢٥٣].

اختيار اسم المفعول:

من ذلك ما جاء فى قوله تعالى: ﴿**وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ**﴾ (البقرة:٢٥) حيث اختير اسم المفعول (**مطهرة**) على اسم الفاعل (**طاهرة**)، وقد بحث الزمخشرى سر الاختيار لتلك الصيغة فقال: "فإن قلت هلا قيل طاهرة! (**قلت**) فى مطهرة فخامة لصفتهن ليست فى (**طاهرة**) وهى الإشعار بأن مطهرا طهرهن، وليس ذلك إلا الله عز وجل المريد بعباده الصالحين أن يخولهم كل مزية فيما أعد لهم"[٢٥٤] سبب اختيار صيغة المفعول إذا؛ أن صيغة الفاعل هنا تثبت صفة الطهر للأزواج، أما صيغة المفعول فتثبت تلك الصيغة وزيادة، إذ تدل كذلك على أن ثمة فاعلا لها، وليس ذلك إلا الله عز وجل فكان فى ذلك مزيد تفخيم وتشريف لتلك الأزواج الموصوفة.

---

(٢٥١) الرازى ١٢٦/١٢- الكشاف/١١٥/٣ وانظر الألوسى ٨٢/١٩- فتح القدير١٠١/٤.

(٢٥٢) الكشاف/١١٥/٣ وانظر الألوسى ٨٢/١٩.

(٢٥٣) اكتفينا بتوجيه الآية على القراءتين المشهورتين (حاذرون) و(حذرون) دون القراءة الثالثة (حادرون) فهى قراءة ابن السميفع وابن أبى عمار، قال الطبرى عن القراءتين الأوليين: "والصواب من القول فى ذلك أنهما قراءتان مستفيضتان فى قراء الأمصار". انظر تفاسير: الطبرى ٤٨/١٩- أبى حيان ١٨/٧- ابن عطية ٢٣٢/٤- السمين الحلبى٢٧٤/٥- الرازى ١٢٦/١٢- الشوكانى١٠١/٤.

(٢٥٤) الكشاف٥٣/١.

اختيار صيغة المفرد:

من أمثلته البليغة قوله تعالى:﴿ **إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ... عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ**﴾ (التكوير:١، ٢، ١٤) اختلفت أقوال العلماء فى هذا الموضع، وأطالوا الوقوف عنده: قال الزمخشرى" فإن قلت كل نفس تعلم ما أحضرت كقوله يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا لا نفس واحدة فما معنى قوله (**علمت نفس**) (**قلت**) هو من عكس كلامهم الذى يقصدون به الإفراط فيما يعكس عنه، ومنه قوله عز وجل: ﴿**رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ**﴾ (الحجر:٣) ومعناه معنى كم وأبلغ منه، وقول القائل:

قد أترك القرن مصفرا أنامله

وتقول لبعض قواد العساكر كم عندك من الفرسان فيقول (**رب فارس عندى**) أو (**لا تعدم عندى فارسا**) وعنده (**المقانب**)[٢٥٥]، وقصده بذلك التمادى فى تكثير فرسانه؛ ولكنه أراد إظهار براءته من التزيد، وأنه ممن يقلل كثير ما عنده فضلا أن يتزيد فجاء بلفظ التقليل ففهم منه معنى الكثرة على الصحة واليقين[٢٥٦]. ومعنى هذا أن اللفظ فى هذا الموضع قد استعير لضد معناه للدلالة على المبالغة وهو ما يقرره صاحب الكشف فيما نقله الألوسى عنه من أن "الأصل فى هذا الباب أن استعارة أحد الضدين للآخر تفيد المبالغة للتعكيس"[٢٥٧] وقال ابن عطية فى المحرر" نفس : هنا اسم جنس، أى علمت النفوس، ووقع الإفراد لتنبيه الذهن على حقارة المرء الواحد وقلة دفاعه عن نفسه"[٢٥٨] وذهب الشهاب إلى أنه" تهويل لذلك اليوم وإظهار لكبرياء الله وعظمته، حتى كأن جميع النفوس البشرية فى جنب ما خلقه من الأجرام العظام أمور قليلة، ونفوس حقيرة[٢٥٩] "ويرى باحث معاصر التعبير بالمفرد هنا دون الجمع واستعارته لعكس معناه" يتجاوب مع الانقلاب الهائل الذى يحدث فى جميع ظواهر الكون والانعكاس فى حركة الخلق"[٢٦٠].

---

(٢٥٥) المقانب: جمع مِقنَب، والمقنب من الخيل ما بين الثلاثين إلى الأربعين؛ وقيل زهاء ثلثمائة . اللسان (قنب)

(٢٥٦) الكشاف٤/١٨٩.

(٢٥٧) انظر روح المعانى ٨/١٤ و٥٧/٣٠، مفاتيح الغيب ٢٤١/١٦.

(٢٥٨) المحرر الوجيز٤٤٣/٥.

(٢٥٩) انظر حاشية الشهاب على البيضاوى ٣٢٨/٨.

(٢٦٠) د/ محمود أمين الخضرى - الإعجاز البيانى ص ٦٧.

والذى أذهب إليه أن إعجاز القرآن فى هذه اللفظة يحتمل هذه الأقوال جميعا. فما ذهب إليه الزمخشرى ومن تابعه يدل على أن المتكلم "أراد إظهار براءته من التزيد وأنه ممن يقلل كثير ما عنده فضلا أن يتزيد... الخ" فكأنه ترك تقدير الأمر لوضوحه لسامعه، فكأن المرء إذا سمع "علمت نفس" قال فى نفسه: (**سنعلم جميعا**) ففيه من البلاغة تقرير المخاطب بما عليه وإلزامه بإقامة الحجة على نفسه.

وأما ما ذهب إليه ابن عطية من دلالة المفرد فى هذا الموضع على الجنس، فيفيد اتحاد الجنس البشرى جميعا فى هذه الحقيقة الثابتة فى هذا اليوم حيث يجنى كل امرئ ما كسبت يداه، مع ما يقترن بذلك من شعور عام بالخوف والقلق والترقب لنتيجة تلك الأعمال ومعرفة عاقبتها ومآلها.

وكذلك تعليل ابن عطية والشهاب أن الإفراد للتحقير مما يدل على حقارة المرء الواحد وقلة دفاعه عن نفسه كما ذهب إليه ابن عطية، فكأن الآية تلمح إلى مجيء هذا المرء إلى المحشر وحيدا ليس معه أعوان ولا شفعاء كما قرره الله تعالى فى أكثر من موضع كقوله تعالى: ﴿**وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً**﴾ (مريم ٨٠) وقوله: ﴿**وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً**﴾ (مريم: ٩٥).

فكأن قوله تعالى ﴿**عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ**﴾ (التكوير: ٤) أى علمت نفس متجردة وحيدة منفردة ما أحضرت، فما قلة دفاعها عن نفسها، وما قلة أعوانها وحينئذ يقال للمجرمين المحضرين فى هذا الموقف ﴿**وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ**﴾ (الأنعام: ٩٤).

يقول الأستاذ سيد قطب "كل نفس تعلم فى هذا اليوم الهائل ما معها وما لها وما عليها.. تعلم وهذا الهول يحيط بها ويغمرها.. تعلم وهى لا تملك أن تغير شيئا مما أحضرت، ولا أن تزيد عليه ولا أن تنقص منه.. تعلم وقد انفصلت عن كل ما هو مألوف لها، معهود فى حياتها أو تصورها. قد انقطعت عن عالمها وانقطع عنها عالمها[٢٦١].

وكأن القرطبى قد أراد الإشارة إلى هذا المعنى كذلك حيث أورد فى هذا الموضع حديث عدى بن حاتم فى الصحيحين قال، قال رسول الله ﷺ: "ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله ما بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم

---

(٢٦١) انظر الظلال٦/٣٨٤١.

منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فتستقبله النار، فمن استطاع أن يتقى النار ولو بشق تمرة فليفعل"[٢٦٢].

وأما إشارة الشهاب إلى ان التحقير للنفوس جميعا فى مقابل عظم مخلوقات الله تعالى حيث تتضاءل هذه النفوس فى ذلك المشهد أما الملك فتصير كأنها نفس واحدة، وهذا ما يعبر عنه رب العزة جل وعلا فى قوله:﴿ **مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** ﴾ (لقمان: ٢٨) فهذه النفوس جميعا هى أمام عين الله تعالى سواء، فلا يلتبس عليه رؤيتهم، ولا تختلط عليه أصواتهم فهم أمامه كنفس واحدة، حيث " يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد فيسمعهم الداعى، وينفذهم البصر" كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ[٢٦٣] من ثم يتخرج هذا الوجه على رعاية حال المتكلم، وذلك أن الحق سبحانه قد عبر عن كثرة النفوس فى ذلك المشهد بالوحدة لأنها كذلك بالنسبة له سبحانه، وفيه من رعاية حال المخاطب كذلك تهويل الأمر له وتخويفه حيث يعلم أنه لا يخفى على الله: ﴿**يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ** ﴾ (غافر: ١٦) أو كما قال تعالى:﴿ **يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ** ﴾ (الحاقة: ١٨) وعندى أنه يجوز فى الآية وجه آخر، وهو أن يكون المقصود بنفس؛ نفس مهملة مغيبة من الخطاب محتقرة، ويعرض بها رب العزة جل وعلا، كأنه قال: علمت نفس مفرطة معرضة مقصرة فيما كلفت به ما أحضرت من العمل حينما وقف للحساب.

والذى أراه أن الآية تحتمل بصيغتها تلك الوجوه جميعا، ولا مانع من أن تكون تلك المعانى مراده جميعا لا سيما وأن لكل منها وجها صحيحا غير معارض، مع اتساقها جميعا مع مشهد هذا اليوم.

وقد تكرر ذلك الاختيار لتلك الصيغة بنفس الأسلوب فى سورة الانفطار التالية لتلك السورة فى قوله تعالى: ﴿**إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ... عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ**﴾ وما قيل فى الموضع الأول يمكن أن يقال فى هذا الموضع كذلك؛ ومن ثم تتعدد دلالات المفرد فى هذا الموضع ما بين الدلالة على التكثير أو التحقير أو التقليل أو التعريض إلى غير ذلك من المعانى.

من الأمثلة البليغة التى تحققت فيها المزاوجة بين صيغتى الإفراد والجمع: قول الله تعالى فى سورة النساء: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي**

---

(٢٦٢) القرطبى ٧٠٢٧/١٠ ط الريان.

(٢٦٣) الحديث أخرجه البخارى١٠٥/١٦٤،٦/٣ ط الشعب، مسلم فى الإيمان٤٦٩/١ بشرح النووى ط الشعب.

مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِين﴾ (النساء:١٣-١٤) فقد جمع "خالدين" فى وصف ثواب الطائعين، وأفرده فى وصف عقاب "العاصين"[٢٦٤] وهنا لا يكاد يشك صاحب الذوق الرفيع أن لإفراد العاصى هنا فيه من معانى الإذلال والتعذيب بالوحشة والإنفراد ما فيه.

وقد التفت إلى هذا المعنى العلامة أبو السعود حيث قال "ولعل إيثار الإفراد ههنا نظرا إلى ظاهر اللفظ، واختيار الجمع هناك نظرا إلى المعنى للإيذان بأن الخلود فى دار الثواب بصفة الاجتماع أجلب للأنس كما أن الخلود فى دار العذاب بصفة الانفراد أشد فى استجلاب الوحشة"[٢٦٥].

وجدير بالذكر أن هذه المزاوجة المذكورة فى هذا الموضع هى طريقة القرآن ونهجه فى التعبير عن عذاب الكافر، ونعيم المتقين، حيث يطرد الإفراد بالنسبة للكافر والجمع بالنسبة للمؤمن للغرض نفسه، وهذا ما نلمحه فى المثال التالى فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ * طَعَامُ الأَثِيمِ * كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ * كَغَلْيِ الْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ* ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ* ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (الدخان: ٤٣-٤٩) حيث نلمح فى هذه الآيات إفراد الأثيم فى مقابل جمع المتقين فى الآيات التالية فى المشهد التالى من السورة نفسها: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ *كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴾ (الدخان:٥١-٥٥) وهنا تؤدى صيغة الفرد دورها فى إحداث ذلك التقابل البديع بين انفراد الكافر ومعاناته عذاب الوحشة والوحدة فوق عذاب الجحيم فى مقابل ائتناس المؤمن بصحبته ورفاقه فى جنات النعيم، فنرى التقابل بين ذلك العذاب المضاعف، وذلك النعيم المضاعف.

وبهذا تؤدى صيغة المفرد فى مثل هذا السياق معنى الوحشة والوحدة ومعاناة ألم الغربة والافتراق.

ومن الأمثلة البليغة أيضا فى اختيار صيغة المفرد قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ (مريم: ٤) قال الزمخشرى فى بيان سر اختيار المفرد دون الجمع (عظام) فى هذه الآية" وإنما ذكر العظم...، ووحده لأنه هو

---

(٢٦٤) سورة النساء/١٣/١٤.

(٢٦٥) تفسير أبى السعود٢/١٥٤.

الدال على معنى الجنسية وقصده إلى أن هذا الجنس الذى هو العمود والقوام وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن ولو جمع لكان قصدا إلى معنى آخر وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها[٢٦٦].

ومن ثم كان لصيغة المفرد دورها فى إبراز معنى الجنسية بخلاف صيغة الجمع التى قد تصرف الذهن إلى إرادة معنى الشمول، وهو غير مراد فى هذا المقام.

اختيار صيغة الجمع

قد يأتى اختيار صيغة الجمع وإيثارها على المفرد لمعنى المبالغة أو التكثير، فمن ذلك قوله تعالى فى تمثيل حال المنافقين: ﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ**﴾ (البقرة:١٧) ففى هذا الموضع يمثل الله تعالى لتكاثر الشبهات على المنافقين بتخليهم عن الإيمان، بمن انطفأ نوره فصار فى ظلمة حالكة ولكنه جمع هذه الظلمة ليناسب بها كثرة الشبهات التى تعرض للمنافق وتحيط به حتى ينخلع عن ربقة الإيمان والإسلام. أو يكون تكثير الظلمات باعتبار محالها فى القلب والبصر والحال، قال البقاعى: "وتركهم فى ظلمات: "أى بالضلالة من قلوبهم وأبصارهم وليلهم أى ظلمات لا ينفذ فيها بصر، فلذا كانت نتيجته "لا يبصرون" أى لا إبصار لهم أصلا ببصر ولا بصيرة"[٢٦٧] وقد يكون تكثير الظلمات هنا إنما هو باعتبار عظم ما هم فيه من الكفر والضلال، فهى" وإن كانت ظلمة واحدة لكنها لشدتها استعير لها صيغة الجمع مبالغة"[٢٦٨] تكثير الظلمات هنا إنما هو إما باعتبار قوتها وإما باعتبار كثرتها، وعلى النحو من ذلك يمكن أن يفسر أيضا جمع الظلمات دون الرعد والبرق فى قوله تعالى:﴿**أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾ (البقرة: ١٩) ومن الأمثلة كذلك: قوله تعالى ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾ (الطور: ٨٤)، فبينما آثر التعبير القرآنى صيغة المفرد فى قوله تعالى:﴿ **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي**﴾ (طه: ٣٩) نراه يؤثر هنا صيغة الجمع فى مقام تسلية النبى ﷺ وتثبيته إزاء إيذاء المشركين له.

---

(٢٦٦) انظر الكشاف٢/٤٠٥.

(٢٦٧) البقاعى ص ١٢٠/١١٩ نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور لبرهان الدين أبى الحسن إبراهيم بن عمر البقاع ط مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن.

(٢٦٨) انظر روح المعانى١٩٧/١.

كما نجد إيثار صيغة الجمع كذلك فى خطابه تعالى لنوح عليه السلام فى مثل هذا المقام أيضا مقام التثبيت فى قوله تعالى: ﴿**وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ**﴾ (هود:٣٧).

ومن ذلك قول المهلهل بن ربيعة فى رثاء أخيه كليب:

على أن ليس عدلا من كليب إذا برزت مخبأة الخدور(٢٦٩)

حيث اختار الجمع (الخدور) على التعبير بالمفرد (**الخدر**) وذلك دلالة على المبالغة فى استتارها، ولذا اختار صيغة اسم المفعول (**مخبأة**) مشتقة من الفعل (**خبأ**) المضعف الدال على المبالغة فى الفعل كذلك، وصيغة المفعول تدل على أن ثمة أهلا قد خبأوها وأخفوها وبالغوا فى سترها ومن كانت، بمثل هذا الوصف فى تخبيئها وتخديرها وإخفائها لفرط حسنها وجمالها فإنها إذا برزت يوما فإن الرجال لا يتطلعون إلى اجتلاء محاسنها، والنظر إلى مفاتنها المخبأة خلف الخدور، وهذا كله يعمق ما فى الشاعر بصدده من المبالغة فى وصف أخيه كليب بصفات المروءة ومن بينها صفة العفة التى قصد إلى المبالغة فى وصفه بها فى هذا البيت.

اختيار صيغة الجمع بين القلة والكثرة

ثمة مواضع يوظف فيها جمع القلة لأغراض ومعان لا يعبر عنها جمع الكثرة، فمن أمثلة ذلك، قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ**﴾ (سبأ: ٣٧) حيث جاءت الآية هنا على صيغة القلة غرفات، بينما اختيرت صيغة الكثرة فى قوله تعالى ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**﴾ (العنكبوت: ٥٨) وقوله ﴿**لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ**﴾ (الزمر: ٢٠) وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن جمع القلة فى الآية الأولى قد أريد به الكثرة وذلك حتى يمكن الجمع بين هذه الآية والآيتين الأخريين اللتين جاء التعبير فيهما بصيغة الكثرة، بل أنهم يرون أنه لا فارق بين هذه الآيات التى جاءت بصيغة الجمع، وبين ما جاء بصيغة المفرد فى قوله تعالى ﴿**أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا**﴾ (الفرقان : ٧٥)؛ إذ الجميع فى الدلالة على الكثرة سواء، إذ الشأن ألا تفاوت(٢٧٠). والحق أن هذا القول قد وقف فى التسوية بين

---

(٢٦٩) انظر موسوعة الشعر العربى١/١٩٥.

(٢٧٠) انظر تفسير البيضاوى وحاشية الشهاب ٦/٤٣٨، وانظر د/ محمد الأمين الخضرى - الإعجاز البيانى فى صيغ الألفاظ ص ١٤٥.

معانى تلك الصيغ (**جمع القلة – جمع الكثرة – المفرد**) عند المستوى اللغوى دون المستوى الكلامى؛ إذ إن المفرد يصح التعبير به لإرادة الجنس فيدل على الكثرة، وجمع القلة ينوب عن المفرد كذلك فى الدلالة على الجنس[٢٧١] ومن ثم فهذه الصيغ من جهة المستوى اللغوى سواء لاشتراكها جميعا فى الدلالة على الكثرة.

أما البحث فى الخصوصية الدلالية لكل صيغة من تلك الصيغ، فهذا هو ما يتميز به المستوى الفنى الكلامى لدلالة الصيغة ولكى ندرك الخصوصية الدلالية لكل صيغة من تلك الصيغ لا بد لنا من مراجعة سياقها الذى وردت فيه. ففى الموضع الأول جاء سبب الجزاء مقتصرا على الإيمان والعمل الصالح مما يشعر أن أصحاب هذه المنزلة هم المقتصدون أصحاب منزلة الوسط فى العمل فهم فى المنزلة الثانية من منازل العابدين التى بينها الله تعالى فى قوله: ﴿**ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا**﴾ (فاطر ٣٢-٣٣). ومن ثم جاء جزؤهم محدودا كما أن عملهم كان محدودا كذلك فهى منزلة من أدى الواجبات وترك المحرمات، فهؤلاء هم أصحاب اليمين.

وأما الموصوفون فى الآيات الأخرى فهم السابقون (على نحو تفرقة سورة الواقعة بين الفريقين، انظر الآيات الأولى من سورة الواقعة) وإذا راجعنا سياق آية العنكبوت نجد أن قول الله تعالى ﴿**يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ**﴾ (العنكبوت/٥٦) يشعر بوصفهم بالهجرة، وقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ (العنكبوت: ٥٩) صريح فى وصفهم بصفة الصابرين، وقد قال تعالى فى جزاء هولاء المهاجرين الصابرين: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ (الزمر:١٠) حيث جاءت الإشارة كذلك إلى وصفهم بالهجرة والتصريح بوصفهم بالصبر، وكأن ذلك إشارة إلى تلازم الأمرين. وينتهى سياق النداء لهؤلاء المتقين فى سورة الزمر ببيان حسن جزائهم بقوله ﴿**لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ**﴾ ... الآية، وبهذا يتناسب تكثير الغرف، ومجيؤه بصيغة الكثرة مع جزاء هولاء الصابرين الذى جعله الله تعالى لهم بغير حساب ولا حد، أما حينما كان العمل محدودا، جاء الجزاء محدودا بالضعف، وجاءت الغرفات موصوفة بصيغة الجمع الدال على عدد محدود، لا على كثرة غير متناهية. وإن كان القارئ يظل مغتبطا على كل حال بجزاء الضعف وبتلك الغرفاتبقوله ﴿**لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ**

---

(٢٧١) انظر المحتسب لابن جنى ١٨٧/١ ١٨٨ وسيأتى نقله تقريبا.

المِيعَادَ﴾ حقا إنه وعد الله للسابقين المهاجرين والمومنين الصابرين أن يوفيهم أجرهم بغير حساب.

وبنحو هذا الإعجاز القرآنى الذى يغبط المقتصد، ويبهج السابق على ما بينهما من بون شاسع فى الجزاء يأتى الإعجاز النبوى بنحو هذا الأسلوب كذلك فى تعبيره ص عن جزاء قارىء القرآن حيث يقول:

"من يقرأ القرآن ويتتعتع فيه وهو عليه شاق فله أجران" فانظر كيف رغب النبىﷺ ذلك المتتعتع حتى ظن أنه أفضل من الماهر بالقراءة فى الأجر، ولكن إن لهولاء المهرة أجرا بغير حساب، فمن ثم ناسب التعبير بالغرفات حيث كان العمل والجزاء محدودا، وناسب التعبير بالغرف حيث كان العمل والجزاء بغير حدود.

أما أصحاب الغرفة فهم سابقو السابقين، ومقربو المقربين، فهم أصحاب الغرفة الفريدة بما لهم من صفات فريدة، ولم لا وهم صفوة الصفوة، ومن ثم فقد امتازوا بتلك الغرفة وكأنها غرفة عجيبة فريدة قد وعدوها فى الدنيا، فاللام فيها للعهد، وقد جاء فى بعض الأخبار أنها من زمرد وياقوت وأنها مبنية لبنة ذهب ولبنة فضة ونحو ذلك

قال ابن كثير "وفى الصحيح" إن فى الجنة لغرفا يرى بطونها من ظهورها وظهورها من بطونها "فقال أعرابى: لمن هى يا رسول الله؟ قالﷺ " لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وصلى بالليل والناس نيام"، وروى الإمام أحمد عن سهل بن سعد رضى الله عنه أن رسول الله قال:" إن أهل الجنة ليتراءون الغرفة فى الجنة كما تراءون الكوكب فى أفق السماء" ومن ثم فاختيار التعبير بالمفرد فى هذا الموضع دليل على الخصوصية والتميز وإن كان ذلك لا ينفى مجىء المفرد فى هذا الموضع دالا على الجنسية كذلك.

هذه الخصوصية فى الجزاء تناسبها تلك الخصوصية فى العمل الذى كان عليه عباد الرحمن الذين وعدهم الله تلك الغرفة فى الدنيا، حيث قال الله تعالى فى وصفهم: **﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً *وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَراً وَمُقَاماً * ... أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً﴾** (الفرقان ٦٣-٧٥) ومن ذلك أيضا امتنان الله تعالى على المؤمنين بنصر بدر إذ يقول﴿ **وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** (آل عمران:١٢٣) والمؤمنون المخاطبون بذلك كثير، فلماذا اختار الله تعالى صيغة جمع القلة (**أذلة**) على صيغة الكثرة (**أذلاء**) أو (**ذلان**)؟

قال الزمخشرى" والأذلة جمع قلة والذلان جمع الكثرة وجاء بجمع القلة ليدل على أنهم على ذلتهم كانوا قليلا وذلتهم ما كان بهم من ضعف الحال وقلة السلاح والمال والمركوب وذلك أنهم خرجوا على النواضح يعتقب النفر منهم على البعير الواحد وما كان معهم إلا فرس واحد، وقلتهم أنهم كانوا ثلاثمائة وبضعة عشر وكان عدوهم فى حال كثرة زهاء ألف مقاتل ومعهم مائة فرس"[٢٧٢].

وقال الألوسى: **(وأذلة)** جمع قلة لذليل، واختير على ذلائل ليدل على قلتهم مع ذلتهم، والمراد بها عدم العدة لا الذل المعروف فلا يشكل دخول النبى ﷺ فى هذا الخطاب إن قلنا به، وقيل لا مانع من أن يراد المعنى المعروف ويكون المراد **(وأنتم أذلة)** فى أعين غيركم وإن كنتم أعزة فى أنفسكم[٢٧٣] من ثم جاء اختيار صيغة القلة هنا مناسبا لقلة العدد فعددهم وإن كان كثيرا فى نفسه، فإنه قليل بالنسبة لعدد أعدائه وكذلك قلة العتاد والسلاح ورثاثة الحال.

٢- اختيار صيغة الفعل

اختيار صيغة الماضى

فمن ذلك قوله تعالى مخاطبا اليهود: **﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾** (البقرة : ٨٧).

حيث انشغل المفسرون ببيان سر العدول إلى المضارع **(تقتلون)**، ولكنى لم أجد فيما اطلعت عليه من التفت إلى سر اختيار صيغة الماضى فى قوله تعالى**(كذبتم)** والسر فيه فيما أرى - والله أعلم - أن النبوة قد ختمت بمحمدﷺ، وقد كان تكذيبهم له وقت الخطاب حاصلا فالتكذيب حصل قبل الخطاب ومن ثم فالمضى فى التكذيب على حقيقته ولا رسول بعد محمدﷺ يكذبونه فلا معنى للمضارع إذا.

أما فعل القتل فإنه لم يكن قد انتهى منهم بعد، وذلك لشروعهم فى قتل محمدﷺ على تقدير أن الآية قد نزلت قبل فعلتهم الخبيثة؛ أما على تقدير نزولها بعد تلك الفعلة فهى تقرير للحال الحاضر وخير ما يدل على الحقيقة هو المضارع، فلا جرم جاء الخطاب بصيغة المضارع التى تدل على أنهم لم ينتهوا بعد من عادتهم فى قتل الأنبياء، بشروعهم فى قتل محمد ﷺ؛ ومن ثم دسوا له السم فى الشاة التى دعوه إليها بخيبر. وعلى هذا النحو أيضا ورد قوله تعالى فى سورة المائدة **﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ**

---

(٢٧٢) انظر الألوسى ٥٣/١٩، ابن كثير ٢١٦/٤.

(٢٧٣) انظر الكشاف ٢١٥/١، وانظر الرازى ٤٣٤/٤ فقد تابعه على ذلك ونقل كلامه.

بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ﴾ (المائدة: ٧٠).

اختيار صيغة المضارع

من أمثلة اختيار صيغة المضارع ما جاء فى قوله تعالى فى وصف المنافقين ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ (البقرة: ١٤) فأجابهم الله تعالى بقوله ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (البقرة: ١٥) حيث جاء التعبير فى جواب الله تعالى بصيغة المضارع دون اسم الفاعل مستهزئ مثلا قال الزمخشرى "فإن قلت فهلا قيل الله يستهزئ بهم ليكون طبقا لقوله **"إنما نحن مستهزئون" (قلت)** لأن يستهزئ يفيد حدوث الاستهزاء وتجدده وقتا بعد وقت وهكذا كانت نكايات الله فيهم وبلاياه النازلة بهم **"أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين"** وما كانوا يخلون فى أكثر أوقاتهم من تهتك أستار وتكشف أسرار، ونزول فى شأنهم، واستشعار حذر من أن ينزل فيهم ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾[٢٧٤] (التوبة:٦٤). وقال الزمخشرى فى قوله تعالى ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ (سورة ص: ١٨-١٩) "ويسبحن فى معنى ومسبحات على الحال **(فإن قلت)** هل من فرق بين يسبحن ومسبحات **(قلت)** نعم وما اختير يسبحن على مسبحات إلا لذلك وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئا بعد شىء وحالاً وكأن السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسبح مثله قول الأعشى:" إلى ضوء نار فى يفاع تحرق" ولو قال محرقة لم يكن شيئا[٢٧٥] وقد علّق ابن المنيّر على الموضع السابق ذكره عن الزمخشرى فى آية البقرة مقررا كلام الزمخشرى فى هذا الموضع وموبده بأمثلة أخر فقال" ولهذا الفرق بين الفعل والاسم ورد قوله تعالى **﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ**

---

(٢٧٤) انظر الكشاف ص ٣٥/١ قلت والذى ذكره الزمخشرى فى غاية الجودة ولكنه ترك الكلام على اختيار صيغة المضارع فى الفعل التالى" ويمدهم فى طغيانهم يعمهون" وهو يدل على عقاب الله تعالى لأولئك المنافقين الذين أعرضوا عن قبول الهدى مرارا فعاقبهم الله على ذلك بأن صرف قلوبهم عن الحق، وطبع عليها، وأمدهم فى طغيانهم يعمهون، والآيات الدالة على ذلك كثيرة: فمنها قوله تعالى:" قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا" مريم: ٧٥ وقوله: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (الأنعام: ١١٠) وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذِين آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٤) وقوله: ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور: ٦٣) إلخ ما ورد فى ذلك من الآيات ولعل الزمخشرى قد فر من التعرض لهذه النقطة لما فيها من المخالفة لعقيدة الاعتزال.

(٢٧٥) انظر الكشاف ص٣٢٠/٣.

﴿يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ (سورة ص: ١٨-١٩) لما كان التسبيح من الطوائر متكررا متجددا شيئا فشيئا، وحشر الطير معه أمر دائم؛ ذكر التسبيح بصيغة الفعل والحشر بصيغة الاسم[٢٧٦] ويناسب ما قيل أن التسبيح إنما يكون غالبا بتكرار جملة أو أكثر يراد بها تنزيه الله تعالى وتمجيده، ومعنى ذلك أن تلك الجملة ينتهى ترتيلها ثم يتجدد، وهذا هو الواقع من داود عليه السلام فناسب ذلك أن يكون تسبيح الجبال والطير بصيغة تدل على التجدد كذلك.

اختيار صيغة المبنى للمجهول

من أمثلته فى القرآن، قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ (ق:٣٠) ، وذلك بالبناء للمجهول على قراءة ابن مسعود والحسن والأعمش[٢٧٧] قال ابن جنى: "هذا يدل على أن قولنا : ضرب زيد ونحوه لم يترك ذكر الفاعل للجهل به، بل لأن العناية انصرفت إلى ذكر وقوع الفعل يزيد،عرف الفاعل به أو جهل لقراءة الجماعة: (يوم نقول) وهذا يؤكد عندك قوة العناية بالمفعول به" فالغرض البلاغى من اختيار صيغة المبنى للمجهول فى هذه الآية على غيرها من الصيغ هو - كما ذكر ابن جنى - لفت الأنظار إلى جهنم وامتلائها بصرف النظر عن قائل ذلك لها. ومن ثم ففائدة البناء للمجهول غالبا هى تغييب الفاعل إلى هامش الشعور لغرض بلاغى هو إفساح الاهتمام بالمفعول. ومن ثم يأتى مناسب لجو الترهيب الذى يقتضيه مقام الآيات وسياقها. وعلى هذا النحو جاء التعبير بصيغة البناء للمجهول فى قوله تعالى ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ (آل عمران: ١٨٥) وذلك للغرض السابق وهو تركيز الاهتمام على ما هو أهم وهو هنا نجاة هذا العبد من تلك النار، ودخوله الجنة، بصرف النظر عن فاعل ذلك له.

فضلا عما يفيده البناء للمجهول من فائدة تعميم الفاعل وهذا يناسب حال العبد فى هذا الموقف ورغبته فى النجاة بأى وسيلة، من مغفرة الله عز وجل أو شفاعة النبى ﷺ، أو عمل صالح يكون قد ادخره لهذا اليوم.

ومن الأمثلة كذلك قوله تعالى ﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ* وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية: ١٧-٢٠) والنكتة هنا فى البناء للمجهول هى تغييب الفاعل الذى يجحده هؤلاء الكافرون، ليفسح مجال النظر إلى دلائل قدرته التى لا يدعيها أحد غيره سبحانه، فإذا سلم هؤلاء الجاحدون بما فى هذه المخلوقات من حكمة وقدرة وإبداع لا يدعيها أحد غيره سبحانه

---

(٢٧٦) انظر الكشاف ص ٣٥/١.

(٢٧٧) انظر المحتسب٢٨٤/٢.

ولا يصح نسبتها إلى أحد سواه، فقد سلموا بأنه لا خالق غيره ولا رب سواه. ومن ثم جاء اختيار البناء للمجهول لإفساح المجال للنظر فى الأدلة الدالة على الفاعل الصانع ليتوصل إليه المشركون ويقروا به بأنفسهم فيكون هذا الطريق أقوى فى إقامة الحجة عليهم من طريق التصريح بالفاعل.

ومن الأمثلة القرآنية أيضا: قول الله تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الحَيَاةُ الدُّنْيَا**﴾ (البقرة: ٢١٢) وقوله تعالى﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ**﴾ (آل عمران: ١٤) حيث يطيل المفسرون والمتكلمون الوقوف فى البحث عن فاعل التزيين هل هو الله أم الشيطان؟[٢٧٨] وتأتى الآيات بالبناء للمجهول فى تلك المواضع لتفسح المجال لتأمل حقيقة أمر هذه الحياة الدنيا وهو أنه مجرد تزيين وتغرير﴿ **وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ**﴾ (آل عمران: ١٨٥) ويدع القرآن أولئك المتكلمين فيما يخوضون فيه فلا يبالى بإجابتهم عن المزين هل هو الله أم الشيطان.

اختيار صيغة أفعل

تأتى صيغة (**أفعل**) لأغراض ودلالات بلغ بها "أبو حيان" عشرين ونيفا، أشهرها التعدية ومنها الدلالة على الصيرورة والسلب والتمكين والتعريض. وغير ذلك[٢٧٩].

قال ابن الحاجب" وأفعل للتعدية غالبا نحو أجلسته، وللتعريض نحو أبعته ... ولوجوده على صفة نحو أحمدته وأبخلته..."[٢٨٠] فمما جاء للتعدية قوله تعالى عن مريم عليها السلام ﴿**فَأَجَاءَهَا المَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ**﴾ (مريم: ٢٣)، حيث جاءت صيغة أفعل للتعدية لتعبر عن معنى الاضطرار والإلجاء، وهذا يناسب حالة الضيق والكراهية لهذا الأمر من مريم عليها السلام حيث عبرت عن ذلك بقولها﴿ **يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِياً**﴾[٢٨١] (مريم: ٢٣)

وقد انفردت صيغة أفعل من بين صيغ الفعل المزيد بالدلالة على معنى التعريض، والمراد به: جعل ما كان مفعولا للثلاثى معرضا لأن يكون مفعولا لأصل الحدث

---

(٢٧٨) انظر الكشاف ١٢٨/١ ١٧٨.

(٢٧٩) انظر البحر المحيط ٢٦/١.

(٢٨٠) انظر شرح الشافية ٨٣/١.

(٢٨١) انظر أبنية الأفعال/ نجاة الكوفى ص ٣٢،١٠٢، وانظر الدر المصون٤/ص ٤٩٨/٤٩٧، المحرر الوجيز٤/ص ١٠، روح المعانى٦/ص ٨١، البصائر ٤١٣/٢، مفاتيح الغيب١٠/ص ٤١٣، القرطبى ٤١٣١/٦.

كقولهم أسقيته بمعنى: وفرت له ما يشربه، أو عرضت له الشراب، شرب أم لم يشرب ومثله أقبرته: أى جعلت له قبرا يقبر فيه فى الحال أو الاستقبال.

والملاحظ فى مثل هذه الأفعال: **(سقى وأسقى)** **(قبر وأقبر)** أنها كانت متعدية قبل دخول الهمزة وظلت على حالها من التعدى بعد زيادتها، بمعنى أن الهمزة لم تؤثر فى عمل الفعل كما هو الشأن فى همزة التعدية لكنها أثرت على حكم المفعول به، لأن الحدث مع الثلاثى واقع على المفعول، فإذا دخلت الهمزة صار وقوع الفعل محتملا بعد أن كان محققا. فقولنا مثلا: **(باع التاجر تجارته)** يفيد إتمام البيع، وأما: **(أباع التاجر تجارته)** فإنما يفيد أنه عرضها للبيع. واستشهد" الزجاج" على ذلك بقول الشاعر:

ورضيت آلاء الكميت فمن يبع فرسا فليس جوادنا بمباع

والمعنى: فليس جوادنا بمعرض للبيع

ومن مجيء الهمزة للتعريض قولهم: أقتلت الرجل عرضته للقتل، وأحبسه إذا فعل به فعلا عرضه به لأن يحبس، قال ثعلب:"(حبست الرجل عن حاجته... إذا منعته من التصرف فى أموره وأحبست فرسا فى سبيل الله... إذا جعلته وقفا على الغزاة يجاهدون عليه ومنعت من بيعه وهبته) وقد اختلفت الأقوال فى قولهم: سقاه، بمعنى قدم له الشراب فتناوله، وأسقاه بمعنى وفر الشراب وجعله معرضا للشاربين، فقيل: هما لغتان أى أن الفعل المزيد استعمل فى معنى مجرده فى بعض اللغات[٢٨٢]. وقال سيبويه:" وتجيء أفعلته على أن تعرضه لأمر وذلك قولك أقتلته أى عرضته للقتل وتجيء مثل قبرته وأقبرته فقبرته دفنته وأقبرته جعلت له قبرا وتقول سقيته فشرب وأسقيته جعلت له ماء وسقيا ألا ترى أنك تقول أسقيته نهرا[٢٨٣] وقال الفيروزابادى" والسقى والسُقيا: أن تعطيه ما يشرب والإسقاء: أن تجعل له ذلك حتى يتناوله كيف شاء. والإسقاء أبلغ من السقى لأن الإسقاء: هو أن تجعل له ما يستقى منه ويشرب، تقول: أسقيته نهرا. قال تعالى: **﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾** (الإنسان: ٣١) وقال **﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾** (الحجر: ٢٢)

وقال **﴿نُسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ ﴾** (النحل: ٦٦) أى جعلناه سقيا لكم وقيل: سقاه لشفته، وأسقاه لدابته[٢٨٤].

---

(٢٨٢) انظر د/ نجاة الكوفى- أبنية الأفعال ص ٣٦/٣٥.

(٢٨٣) انظر سيبويه ٢٣٥/٢.

(٢٨٤) انظر بصائر ذوى التمييز ص٢٣١-٢٣٢.

وقد ورد الفعل المجرد والمزيد فى القرآن الكريم فى عدّة مواضع.

أما المجرد فجاء مسندا لله تعالى ولغيره نحو ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾، وفى قصة موسى عليه السلام﴿ فَسَقَى لَهُمَا﴾ وأما المزيد فجاء فى جميع المواضع مسندا إلى ضمير لفظ الجلالة مرادا به توفير الشراب فى الحياة الدنيا، وكونه معروضا لطالبه، مبذولا لحاجته، لا فرق بين ما كان من بطون الأنعام أو من النهر أو ماء السماء، ولا فرق أيضا بين شراب الحيوان أو الإنسان، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتاً﴾ (المرسلات: ٢٧) ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ (الحجر:٢٢) وقوله تعالى﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً﴾ (الجن:١٦)﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِّلشَّارِبِينَ ﴾ (النحل:٦٦) ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾ (الفرقان: ٤٩) والمعنى فى هذه الآيات الكريمة أن الله سبحانه وفر للإنسان والحيوان ما يستقى منه فى الحياة الدنيا، وجعله معروضا لحاجته، معرضا للنيل منه، فكأن المقصود هنا ليس هو مجرد الامتنان بالماء بل الامتنان هنا يجعله مهيأ للشرب والتناول، وذلك على نحو امتنانه سبحانه على عباده فى سورة الواقعة فى قوله ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلاَ تَشْكُرُونَ﴾ (الواقعة: ٦٨-٧٠).

وما ذكرته هنا إنما هو استناد إلى أن من معانى(**أفعل**) التعريض، كما يقال (**أبعته**) أى عرضته للبيع.

أما الثلاثى المجرد فقد جاء مسندا إلى الخالق عز وجل فى موضعين: قال تعالى: ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ (الإنسان:٢١)﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ (الشعراء: ٧٩).

والفعل فى الآية الأولى جاء فى موضع الامتنان على الأبرار فى الآخرة، وجاء فى الآية الثانية فى مقام شكر النعمة فى الحياة الدنيا، وربما كان الغرض من مجىء الفعل مجردا، الدلالة على أن المقصود هنا هو الامتنان بنعمة الماء نفسها، ويؤيد ذلك وصفه بالطهور فى الآية الأولى، وروده مقرونا بالطعام الذى هو قوام الحياة فى الآية الثانية(٢٨٥).

وجاء الثلاثى المجرد فى بقية المواضع مسندا إلى المخلوقين، مرادا به تقديم الشراب للإنسان أو الحيوان فى الحياة الدنيا نحو﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا

---

(٢٨٥) انظر أبنية الأفعال ص ٣٦ ٣٧.

فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ (يوسف: ٤١)،[٢٨٦] ولا شك أن ثمة فارقا بين تقديم الشيء وبين جعله معروضا لمن أراده ورغب فيه؛ ولذا جاء التعبير بالفعل المجرد فى وصف حال أهل الجنة منسوبا إلى رب العزة جل وعلا تكريما منه سبحانه وتشريفا لأصحاب النعيم.

ومما جاءت فيع أفعل للدلالة على وجدان الشيء على صفة قوله تعالى فى وصف النسوة اللاتى رأين يوسف عليه السلام: ﴿**فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ**﴾ (يوسف:٣١) قال ابن عطية: أكبرنه معناه: أعظمنه واستهولن جماله" ونسبه إلى الجمهور.

وثمة قوله آخر أن أكبرنه بمعنى حضن، والهاء للسكت وقد ضعفه الطبرى وابن عطية وغيرهما من المحققين[٢٨٧].

وقال الزمخشرى: (**أكبرنه**) أعظمنه وهبن ذلك الحسن الرائع والجمال الفائق"[٢٨٨] قال الرازى إنما أكبرنه لأنهن رأين عليه نور النبوة وسيْما الرسالة، وآثار الخضوع والاحتشام، وشاهدن منه مهابة النبوة وهيئة الملكية، وهى عدم الالتفات إلى المطعوم والمنكوح، وعدم الاعتداد بهن، وكان الجمال العظيم مقرونا بتلك الهيبة والهيئة فتعجبن من تلك الحالة فلا جرم أكبرنه وعظمنه، ووقع الرعب والمهابة منه فى قلوبهن، وعندى أن حمل الآية على هذا الوجه أولى[٢٨٩]. ومعنى ذلك أن النسوة توسمن فى يوسف العظمة، وصادفنه ملكا فى صورة البشر، فكأن المعنى أنهن وجدنه كبيرا فى الهيبة والوقار والجمال والملكية وغير ذلك من الصفات فوق ما كن يتصورنه فى مخيلتهن ومن ثم أصابتهن الدهشة فقطعن أيديهن لما فوجئن به وصادفنه من هذا الجمال الباهر، والخلق الوافر.

ومن ثم جاءت صيغة (**أفعل**) فى هذا السياق أكثر مناسبة من نظائرها كصيغة (**فعَل**) على سبيل المثال، التى تدل على وجود الشيء ومصادفته على صفة ما.

---

(٢٨٦) انظر أبنية الأفعال ص ٣٧.

(٢٨٧) انظر الطبرى٦/٧٧ والمحرر الوجيز ٣/٢٣٩، الدر المصون ٤/١٧٥ والرازى ٩/٤١، القرطبى ٥/٣٤٠٩.

(٢٨٨) الكشاف ٢/٢٥٣.

(٢٨٩) الرازى ٩/٤٢.

اختيار صيغة (فَاعَلَ)

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿**يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾ (البقرة:٩) حيث جاء وصف المنافقين بأنهم (**يخادعون الله**) بصيغة المفاعلة وهذه الصيغة تأتى لمعان منها التشارك بين اثنين فأكثر، وهو أن يفعل أحدهما بصاحبه فعلا، فيقابله الآخر بمثله، وحينئذ فينسب للبادى نسبة الفاعلية، وللمقابل نسبة المفعولية. فإذا كان أصل الفعل لازما صار بهذه الصيغة متعديا نحو ماشيته، والأصل: مشيت ومشى.

وتأتى هذه الصيغة لمعان منها: المغالبة.

والموالاة: فيكون بمعنى أفعل المتعدى، كواليت الصوم وتابعته بمعنى أوليت وأتبعت وأتبعت بعضه بعضا[٢٩٠] وقد استشكل حمل الآية على هذه المعانى، ومن ثم قيل" ربما كانت المفاعلة بتنزيل غير الفعل منزلته كيخادعون الله، جعلت معاملتهم لله بما انطوت عليه نفوسهم من إخفاء الكفر وإظهار الإسلام، وسجازاته لهم، مخادعة.

وقد أطال الزمخشرى فى هذا الموضع فقال" الخدع أن يوهم صاحبه خلاف ما يريد به من المكروه من قولهم ضب خادع وخدع إذا أمر الحارس يده على باب حجره أو همه إقباله عليه ثم خرج من باب آخر (**فإن قلت**) كيف ذلك ومخادعة الله والمؤمنون لا تصح؛ لأن العالم الذى لا تخفى عليه خافية لا يخدع والحكيم الذى لا يفعل القبيح لا يخدع والمؤمنين وإن جاز أن ينخدعوا لم يجز أن يخدعوا" ثم ذكر فى جواب ذلك وجوها أربعة: أحدها: أن يقال: كانت صورة صنعهم مع الله حيث يتظاهرون بالإيمان وهم كافرون صورة صنع الخادعين وصورة صنع الله معهم حيث أمر بإجراء أحكام المسلمين عليهم وهم عنده فى عداد شرارة الكفرة.. صورة صنع الخادع، وكذلك صورة صنع المؤمنين معهم حيث امتثلوا أمر الله فيهم فأجروا أحكامهم عليهم.

والثانى: أن يكون ذلك ترجمة عن معتقداتهم وظنهم أن الله ممن يصح خداعه لأن من كان ادعاؤه الإيمان بالله نفاقا لم يكن عارفا بالله ولا بصفاته...

والثالث: أن يذكر الله تعالى ويراد الرسول ﷺ لأنه خليفته فى أرضه والناطق عن عنه بأوامره...

---

(٢٩٠) انظر شذا العرف ص ٤٢ـ٤٣.

والرابع: أن يكون من قولهم (**أعجبنى زيد وكرمه**) فيكون المعنى (يخادعون الذين آمنوا بالله، وفائدة هذه الطريقة قوة الاختصاص، ولما كان المؤمنون من الله بمكان سلك بهم ذلك المسلك...) [٢٩١]

هذه الوجوه التى ذكرها الزمخشرى فى هذا الموضع - فى رأيى - أن المقام يحتملها جميعا، وأرى ألا تنافى بينها، بل أنها تمثل نوعا من الثراء الدلالى لتلك الصيغة ويعد ذلك دليلا على جمال توظيفها الفنى فى هذا السياق.

ومن ثم كان للتعبير بهذه الصيغة فى هذا الموضع أثره فى الكشف عن سوء طوية هؤلاء المنافقين.

وإذا كان لا بد لنا من ترجيح فأرى أن الوجه الأول الذى ذكره الزمخشرى هو أرجح تلك الوجوه التى تعلل لاختيار تلك الصيغة فى هذا الموضع؛ وذلك لأنه أوضحها وأسلمها عن المعارضة، وإن كان ذلك لا يمنعنا من الإفادة من الظلال الأخرى لتلك الصيغة.

وقد تأتى هذه الصيغة دالة على الكثرة، ومن أمثلتها فى الشعر : قول النابغة:

وقفت فيها أصيلانا (أسائلها) عيت جوابا وما بالربع من أحد[٢٩٢]

وكذا قول المهلهل بن ربيعة:

(تسائلنى) أميمة عن أبيها وما تدرى أميمة عن ضميرا![٢٩٣]

ومن الشعر الحديث، قول نجيب الكيلانى فى ديوانه مهاجر:

(تسائلنى) عن القلب المعنّى وعن قلبى المعذّب وانتمائى[٢٩٤]

حيث اختيرت صيغة (**فاعل**) للدلالة على كثرة السؤال والإلحاح فيها، ففى البيت الأول وقف الشاعر يلح على الديار بالسؤال ويكرره عليها علها تعيره جوابا، وما ذلك إلا لتعلق قلبه بتلك المعاهد وأهلها الذين ارتحلوا عنها وفى بيت المهلهل، وكذا بيت نجيب الكيلانى يدل التعبير بصيغة المفاعلة على كثرة المساءلة الدالة على

---

(٢٩١) انظر الكشاف ١/٣٠.

(٢٩٢) ديوان النابغة ص ٩.

(٢٩٣) موسوعة الشعر العربى ١/١٩٤.

(٢٩٤) نجيب الكيلانى/ديوان مهاجر/مؤسسة الرسالة ص ٥.

إشفاق السائل وتحنانه على الشاعر، وذلك ليصور الشاعر مدى معاناته التى ترق لها القلوب.

اختيار صيغة (فَعَّل)

من ذلك ما جاء فى القرآن فى قوله تعالى﴿ **وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ**﴾ (يوسف: ٢٣)

حيث جاء التعبير بصيغة (**فَعَّل**) دون (**أفعل**) ، والسر فى اختيار تلك الصيغة دون غيرها أن (**فعّـل**) إنما تأتى للتكثير غالبا[٢٩٥] ومن ثم ناسب ذلك الدلالة على كثرة الأبواب التى غلقتها امرأة العزيز لتحول دون تفلت يوسف منها، وكذا على إحكام التغليق.

ولذا قال بعضهم: "التشديد فى (غلقت) للتكثير لتعدد المحال"[٢٩٦] فقد قيل كانت سبعة أبواب.

ومعنى ذلك أنها قد تتبعت أبواب القصر تغلقها بابا بابا حتى بلغت باب الحجرة، وذلك لكى تأمن إذا استطاع يوسف أن يفتح بعض الأبواب أن يأتى على جميعها إلا بعد أن تنال حاجتها منه بالمراودة. ويمكن حمل المعنى على المبالغة فى الغلق قال صاحب المحرر" وقوله (**غلّقت**) تضعيف مبالغة لا تعدية"[٢٩٧].

وجاء كلام الألوسى معبرا عن المعنيين فقال" وغلقت الأبواب" أى أبواب البيت، وتشديد الفعل للتكثير فى المفعول إن قلنا: إن الأبواب كانت سبعة كما قيل، فإن لم نقل به فهو لتكثير الفعل فكأنه غلق مرة بعد مرة أو بمغلاق بعد مغلاق وجمع (**الأبواب**) حينئذ إما لجعل كل جزء منه كأنه باب أو لجعل تعدد إغلاقه بمنزلة تعدده، وزعم بعضهم أنه لم يغلق إلا بابان: باب الدار وباب الحجرة التى هما فيها، وادعى بعض المتأخرين أن التشديد للتعدية وأن كونه للتكثير وهم، معللا ذلك بأن (**غلقت الأبواب**) غلقا لغة رديئة متروكة حسبما ذكره الجوهرى، ورد بأن إفادة التعدية لا تنافى إفادة التكثير معها فإن مجرد التعدية يحصل بباب الأفعال فاختيار التفعيل عليه لأحد الأمرين، ولذا قال الجوهرى أيضا (**غلّقت الأبواب**) شُدِّد للتكثير[٢٩٨].

---

(٢٩٥) شرح الشافية ٩٢/١.

(٢٩٦) الدر المصون ١٦٧/٤.

(٢٩٧) المحرر الوجيز ٢٣٢/٣.

(٢٩٨) روح المعانى ٢١١/١٢.

ومن ثم جاءت هذه الصيغة معبرة عن كثرة الأبواب التى غلقت، وكثرة التغليق وإحكامه والمبالغة فيه" والسبب أن ذلك العمل لا يؤتى به إلا فى الموضع المستور لا سيما إذا كان حراما ومع قيام الخوف الشديد"[٢٩٩].

قلت ومن ثم كان الحرص على إحكامه التغليق والمبالغة فيه.

وعلى هذا النحو أيضا جاء قول الله تعالى فى وصف الطوفان الذى أهلك قوم نوح ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ (القمر: ١٢) حيث جاءت صيغة (فعّل) لتتلاقى مع ظلال التكثير فى هذا البيت الناشئة من العناصر الأخرى، قال الألوسى:" جعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة وأصله فجرنا عيون الأرض، فغير إلى التمييز للمبالغة بجعل الأرض كلها متفجرة مع الإبهام والتفسير"[٣٠٠] فناسب تلك المبالغة وذلك التكثير مجيء الفعل على صيغة (فعل) الدالة على التكثير والمبالغة كذلك.

ومن ذلك فى الشعر قول اليزيدى:

مَلَّكْتُه حبلـــى، ولكنـــه ألقاه من زهد على غاربى[٣٠١]

حيث اختار الشاعر صيغة (فعّل) فى قوله (**ملَّكْتُه**) للدلالة على إفراط تمكينه إياه من قلبه حتى استولى عليه وامتلكه تمام الامتلاك، ليقابل ذلك بتخليه عنه تمام التخلى وإلقاء حبل مودته زاهدا فى وصله غير حريص على ما ملكه إياه[٣٠٢].

اختيار صيغة (انفعل)

تأتى هذه الصيغة لمعنى واحد هو المطاوعة، ويختص بما كان فيه علاج وتأثير والمطاوعة عند علماء التصريف هى قبول الأثر، وذلك فيما يظهر للعيون كالكسر والقطع والجذب[٣٠٣].

ومن ثم جاءت هذه الصيغة دالة على ذلك المعنى فى جميع سياقاتها، فمما جاء من ذلك فى القرآن قول الله تعالى:﴿ **وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ**﴾ (التكوير: ٢) وقوله:﴿ **إِذَا**

---

(٢٩٩) انظر الرازى ٢١/٩.

(٣٠٠) انظر روح المعانى ٨٢/٢٧.

(٣٠١) انظر دلائل الإعجاز ص ٢٣٧.

(٣٠٢) انظر اختيار اسم المكان حيث وردت هذه الصيغة فى أبيات للمتنبى علقت عليها هنالك.

(٣٠٣) انظر شرح الشافية ١٠٨/١.

السَّمَاءُ انفطَرَتْ﴾ (الانفطار:١) وقوله:﴿ وَإِذَا الكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾ (الانفطار:٢) وقوله:﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ (الانشقاق: ١) حيث جاءت هذه الصيغة الدالة على المطاوعة مناسبة أتم المناسبة لسياقها حيث دلت على استجابة ذلك الكون وطواعيته وتأثره بكلمة الله تعالى له (**كن**) فإذا السماء انفطرت وانشقت، وإذا الكواكب انتثرت، وإذا النجوم انكدرت، وإذا عقد الكون كله قد انفرط فى لحظة واحدة طواعية لأمر الله تعالى فصدق الله تعالى إذ يقول:﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلاَّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (القمر: ٥٠) ويوكد هذا المعنى أن استقراء هذه الصيغة فى مواقعها يدل على" أن هذه الصيغة إنما تسند للفاعل الذى ينفعل للحدث بسرعة وطواعية لحظة البدء فيه فلا يصح أن نقول: فتحته فانفتح فيما أحكم إغلاقه"[٣٠٤].

اختيار صيغة (افتعل)

يأتى التعبير بصيغة افتعل لأغراض ومعان فنية، منها من ذلك ما جاء فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: ٢٨٦) حيث نلحظ أن الآية اختارت (**اكتسبت**) على (**كسبت**) فى الدلالة على فعل الشر، فاختارت صيغة افتعل عل صيغة (فعل) وهذه الصيغة افتعل تأتى لعدة معان، منها مما يناسب السياق: الاجتهاد والطلب والتصرف والمبالغة فى معنى الفعل[٣٠٥].

قال سيبويه "وأما كسب فإنه يقول أصاب، وأما اكتسب فهو التصرف والطلب والاجتهاد بمنزلة الاضطراب"[٣٠٦] ومن ثم فقد عدلت الآية فى التعبير عن الشر إلى الاكتساب للدلالة على التكلف والاجتهاد والتعمل والاضطراب والتصرف لأجل تحصيل المعصية ويناسب ذلك ما فى المعصية من مخالفة للأعراف والفِطر السليمة، مما يدعو العاصى إلى الاحتيال فيها. قال جماعة من العلماء" افتعل يدل على شدة

---

(٣٠٤) انظر أبنية الأفعال دراسة لغوية قرآنية دار الثقافة ص ٦١ د/ نجاة الكوفى. وعلى هذا النحو جاءت الآيات التالية الدالة على سرعة التأثر والاستجابة والمطاوعة لأمر الله تعالى وفعله:﴿ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ (البقرة ٦٠) ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ (الأعراف: ١٦٠) ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (الشـــعراء٦٣) ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾ (الكهف ٧٧) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا* إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴾ (الشمس: ١٢).

(٣٠٥) انظر الكتاب لسيبويه ٢٤١/٢ وانظر شرح الشافية ١٠٨/١ وانظر الحملاوى شذا العرف ص ٤٤.

(٣٠٦) انظر سيبويه ٢٤١/٢.

الكلفة، وفعل السيئة شديد لما يؤول إليه"[٣٠٧] وقال الزمخشرى" فإن قلت لم خص الخير بالكسب والشر بالاكتساب قلت فى الاكتساب اعتمال فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهى منجذبة إليه وأمارة به كانت فى تحصيله أعمل وأجد فجعلت لذلك مكتسبة فيه ولما لم تكن فى باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاعتمال[٣٠٨].

فالتفت الزمخشرى هنا إلى ما تدل عليه الصيغة من المبالغة فى الفعل ومناسبة ذلك لغلبة الشر على الطباع، واجتهاد الإنسان فيما فيه هواه، ومضيه قدما فى سبيل الفجور، كما قال تعالى ﴿**بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ**﴾ (القيامة:٥) قال الطبرى" يريد أن يمضى أمامه قدما فى معاصى الله لا يثنيه عنها شىء"[٣٠٩] وقال ابن عطية: وقوله تعالى ﴿**لَهَا مَا كَسَبَتْ**﴾ يريد من الحسنات﴿**وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**﴾ يريد من السيئات، قاله السدى وجماعة من المفسرين لا خلاف فى ذلك والخواطر ونحوها ليس من كسب الإنسان. وجاءت العبارة فى الحسنات بـ (**لها**) من حيث هى مما يفرح الإنسان بكسبه ويسر بها فتضاف إلى ملكه، وجاءت فى السيئات بـ (**عليها**) من حيث هى أوزار وأثقال ومتحملات صعبة. وهذا كما تقول لى مال وعلى دين، وكما قال المتصدق باللقطة: (**اللهم عن فلان فإن أبى فلى وعلىّ**) وكرر فعل الكسب فخالف بين التصريف حسنا لنمط الكلام. كما قال﴿ **فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً**﴾ (الطلاق: ١٧) هذا وجه، والذى يظهر لى فى هذا أن الحسنات هى مما يكسب دون تكلف، إذ كاسبها على جادة أمر الله ورسم شرعه والسيئات تكتسب ببناء المبالغة إذ كسبها يتكلف فى أمرها خرق حجاب نهى الله تعالى ويتخطاه إليها فيحسن فى الآية مجىء التصريفين إحرازا لهذا المعنى[٣١٠].

وهذا الذى استظهره ابن عطية هو قول حسن، ولا يعترض عليه إلا بما قيل من أنه لا فرق، وقد جاء القرآن بالكسب والاكتساب فى مورد واحد. قال تعالى﴿ **كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾ وقال تعالى﴿ **وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا**﴾ وقال تعالى﴿ **بَلَى مَن كَسَبَ سَيِّئَةً**﴾ وقال تعالى﴿ **بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا**﴾ فقد استعمل الكسب والاكتساب فى الشر" وقال أبو البقاء" وقال قوم: لا فرق بينهما... وذكر نحوا مما

---

(٣٠٧) انظر الدر المصون ٦٩٧/١.

(٣٠٨) انظر الكشاف ١٧٢/١ وانظر الرازى ٥٢/٥١/٤.

(٣٠٩) انظر الطبرى ١١١/٢٩.

(٣١٠) انظر المحرر الوجيز ٣٩٣/١، وقد نقل كلامه كل من القرطبى ١٢٣٨/٢، ١٢٣٩، والسمين الحلبى ٦٩٧/٦٩٦/١.

تقدم" وقال الواحدى الصحيح عند أهل اللغة أن الكسب والاكتساب واحد لا فرق بينهما قال ذو الرمة:

..... ألفى أباه بذاك الكسب يكتسب

قلت إنما أتى فى الكسب باللام وفى الاكتساب بـ "على" لأن اللام تقتضى الملك، والخير يحب ويسر به فجيء معه بما يقتضى الملك، ولما كان الشر يحذر وهو ثقل ووزر على صاحبه جيء معه بـ "على" المقتضية لاستعلائه عليه وقال بعضهم" فيه إيذان أن أدنى فعل الخير يكون للإنسان تكرما من الله على عبده حتى يصل إليه ما يفعله معه ابنه من غير علمه به، لأنه من كسبه فى الجملة، بخلاف العقوبة فإنه لا يؤاخذ إلا من وجد فيها واجتهد وهذا مبنى على القول بالفرق بين البنائين وهو الأظهر"[٣١١]. ويمكن التوفيق بين ما ذكر بحمل الفعل المجرد كسب فى حق العاصى على معنى إلفه لارتكاب تلك المعاصى فلم يعد يتكلفها[٣١٢]. أما اكتسب فقد تتبعت مواضعها فى القرآن فلم أجدها قد جاءت بمعنى كسب الحسنات. ومن ثم لم يعبر القرآن عن كسب الطاعة إلا بصيغة (**فعل**) أما فى المعصية فقد عبر بفعل وافتعل ليشمل كل معصية سواء ما كان باعتمال وتكلف واجتهاد ومبالغة، أو ما كان بلا مبالاة ولا تكلف فيها.

ويؤيد ذلك أنى تتبعت ما ورد فيه الفعل (**كسب**) المجرد فوجدت أن أغلبه يأتى فى وصف الكافرين أو الفاسقين الذين تجرأوا على المعصية فصاروا لا يبالون بها أما الفعل (**اكتسب**) فلم يأت فى القرآن إلا فى أربعة مواضع اثنان منهما فى آية واحدة يتحدثان عن اكتساب المال، وهما قوله تعالى ﴿**لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ**﴾ (النساء: ٣٢) وواضح أن اختيار صيغة افتعل فى هذا الموضع مناسب لاكتساب المال وما يلزم له من تصرف واجتهاد وكلفة.

أما الموضعان الآخران فهما آية البقرة التى معنا﴿ **لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**﴾ وهى التى نحتج لها والحديث فيها فى حق من يفترض فيه امتثاله للشرع واستجابته لتكليفه بدليل ما قبلها﴿ **لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾ فهى فى حق المومن بهذا التكليف، وهو لا يقدم على المعصية إلا بتكلف ومراودة لنفسه التى تتأبى على العصيان، ولا يحملها عليه إلا غلبة الشهوة والهوى، فكأن نفس المؤمن لا تقدم على

---

(٣١١) انظر الدر المصون ٦٩٧/١.

(٣١٢) انظر د/ نجاة الكوفى/ أبنية الأفعال ص ٥٩.

المعصية إلا بنوع تردد وتكلف، بخلاف نفس الكافر والفاجر الذى جروء على المعاصى.

وأما الموضع الثانى فهو قوله تعالى فى جزاء من خاض فى عرض عائشة (رضى الله عنها) ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ﴾ (النور: ١١) وهؤلاء الذين خاضوا فى عرض عائشة ليسوا كفارا بل هم من المسلمين بدلالة قوله تعالى﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ (النور: ١١). وإن كان الذى تولى كبره منافق، وإن كان منافقا فإنه مسلم فى الظاهر كذلك والخطاب إنما يراعى فيه الأغلب وهم جماعة المؤمنين، ومن ثم جاء التعبير عن اكتساب المعصية هنا بصيغة افتعل مناسبة لحال هؤلاء المسلمين الذين ضعف إيمانهم وزلت ألسنتهم فخاضوا مع ذلك المنافق فى عرض أم المؤمنين فهم لم يقدموا على تلك القولة الشنيعة مع ما عندهم من إسلام وتعظيم لبيت النبوة إلا بقدر كبير من التكلف والتحرج والاعتمال، أما ذلك المنافق فقد أقدم عليها بملء فيه ملتويا فى قيلها متصرفا فيه، مبالغا فيه أشد المبالغة، ومن ثم فقد ناسب صيغة افتعل بدلالتها على التكلف والاعتمال والمبالغة والاجتهاد حال الفريقين من المسلمين والمنافقين الخائضين فى عرض أم المؤمنين أتم المناسبة.

ومن ذلك ما جاء فى قوله تعالى ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف:٣)

وسياق الآية هنا فى أمر المؤمنين باتباع ما أنزل إليهم من الله ونهيهم عن اتباع الأولياء من دونه سبحانه[٣١٣].

حيث يأتى التعبير بصيغة افتعل الدالة على الاجتهاد والكلفة والتحرى[٣١٤].

وهذا يعنى تحرى شرع الله عز وجل والاجتهاد فى اتباعه والالتزام بأوامره. وأما التعبير بصيغة (افتعل) فى النهى عن اتخاذ شركاء يشرعون من دون الله تعالى فالنكتة فيه أنه إنما نهى عما تكلفه صاحبه وقصد إليه دون ما وقع بغير كلفة ولا قصد.

فلعله عبر بالافتعال إيماء إلى ما كان دون علاج بل هفوة وبنوع غفلة فى محل العفو"[٣١٥]

---

(٣١٣) انظر الكشاف ٥٢/٢، روح المعانى ٧٧/٨، نظم الدرر ٣٥٥/٧.

(٣١٤) انظر العدول إلى صيغة افتعل وانظر الكتاب سيبويه ٢٤١/٢، شرح الشافية ١٠٨/١، شذا العرف ص ٤٤.

وشبيه بذلك أيضا التعبير بصيغة (**افتعل**) فى قوله تعالى:﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ (ص:٢٦) أى لا تتبع هوى النفس فى الحكومات[٣١٦].

ويفيد كلام البقاعى فى هذا الموضع أن التعبير بصيغة الافتعال أفاد أنه سبحانه وتعالى عفا عن الخطرات وما بادر الإنسان الرجوع عنه والخلاص منه توبة إلى الله"[٣١٧].

ومن ذلك أيضا ما جاء فى رد الرسول ﷺ على الكافرين حينما طلبوا منه أن يأتيهم بآية فأجابهم بأنه إنما يتبع ما يوحى إليه[٣١٨] حيث قال عز وجل﴿**وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي** ﴾ (الأعراف: ٢٠٣).

قال الزمخشرى" اجتبى الشيء معنى جباه لنفسه أى جمعه كقولك أى جمعه أو جبى إليه فاجتباه أى أخذه كقولك جليت إليه العروس فاجتلاها ومعنى (**لولا اجتبيتها**) هلا اجتمعتها افتعال من عند نفسك لأنهم كانوا يقولون إن هذا إلا إفك مفترى أو هلا أخذتها منزلة عليك مقترحة (**قل إنما يوحى إلى من ربى**) ولست بمفتعل للآيات أو لست بمقترح لها[٣١٩].

فالمشركون قد طلبوا من النبى ﷺأن يفتعل الآيات سخرية منهم ﷺ أو يتكلف طلبها لهم ويتعمده لأجلهم فناسب ذلك أن يقابل القرآن هذا التكلف والتعمد المقترح فى الاقتراح على الله تعالى والتقدم بين يديه بقوله" **قل إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى**" أى أتعمد وأتكلف الاتباع[٣٢٠].

---

(٣١٥) انظر نظم الدرر ٣٥٥/٧.

(٣١٦) انظر روح المعانى ١٨٧/٢٣.

(٣١٧) انظر نظم الدرر ٣٦/١٦.

(٣١٨) انظر الكشاف ١١١/٢.

(٣١٩) انظر الكشاف ١١١/٢.

(٣٢٠) انظر صيغة افتعل فى القرآن الكريم فى المجالات الدلالية د/ زين الخويلى دار المعارف ص ٧٦.

اختيار صيغة (تَفَعَّل)

من ذلك قوله تعالى: **﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾** (يوسف: ٨٧) تأتى هذه الصيغة لمعان، مما يناسب السياق التكلف كتصبر وتحلم: أى تكلف الصبر والحلم، والتدرج فى الشىء وللعمل المتكرر فى مهلة، وتأتى بمعنى استفعل دالة على الطلب[٣٢١] والمتأمل فى سياق الآية السابقة على لسان يعقوب عليه السلام يجد أن الصيغة قد وظفت بتلك المعانى السابقة لتطابق مقتضى الحال الذى سيقت لأجله، فيعقوب عليه السلام قد أحدس بفطنته، ونور بصيرته أن وراء الأمر شيئا لذا فهو يوصى بنيه وأخيه، وتأتى هذه الصيغة (**التفعل**) هنا لتعبر عن معنى الحيطة والحذر والتمهل فى تحسس الخير وتجسسه، كما تأتى بمعنى الطلب، إذا التحسس (**طلب الشىء بالحواس من البصر والسمع**)[٣٢٢] كما عبرت الصيغة كذلك عن تكرر الحدث، مما يدل على الاجتهاد فى استقصاء خبر يوسف وأخيه، وتكرار المحاولة مرة بعد مرة وهذا ما يدل عليه قوله تعالى بعد ذلك **﴿وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾** (يوسف:٨٧). ومن ثم جاءت تلك الصيغة معبرة تماما عن الأمر المطلوب وهو تقصى الخبر مع الحيطة والحذر، وتكرار المحاولة مع عدم اليأس. وانظر أيضا ما جاء منها على صيغة المصدر (**تَفَعُّل**).

اختيار صيغة (استفعل)

من المعانى التى تأتى لها صيغة استفعل:

١- الطلب حقيقة كاستغفرت الله: أى طلبت مغفرته، أو مجازا كاستخرجت الذهب من المعدن، سميت الممارسة فى إخراجه، والاجتهاد فى الحصول عليه طلبا حيث لا يمكن الطلب الحقيقى[٣٢٣].

٢- القوة كاستهتر واستكبر: أى قوى هتره وكبره[٣٢٤].

---

(٣٢١) انظر شرح الشافية ١٠٤/١/١٠٦، وشذا العرف ص ٤٥.

(٣٢٢) انظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٧٤، وانظر مفاتيح الغيب ١٣٥/٩-١٣٦، روح المعانى ٤٤/١٣، الدر المصون ٢١٠/٤.

(٣٢٣) انظر شذا العرف ص ٤٦.

(٣٢٤) انظر شذا العرف ص ٤٧.

فمن ذلك قول الله تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً﴾ (نوح:٧) والمقام هنا مقام تصوير مدى مبالغة هؤلاء الكافرين المعاندين فى الإعراض عن دعوة نوح عليه السلام، وصدودهم عنها، وتأتى صيغة استفعل فى تصوير اجتهادهم ومبالغتهم فى تغشية وجوهم وتغطيتها لئلا يراهم نوح عليه السلام مع تصويره قوة استكبارهم واستنكافهم كذلك عن قبول دعوته، جاء ذلك متجاوبا مع مقام الإعراض ومع تلك الصورة المجازية التى تصور القوم وقد جعلوا أصابعهم جميعها فى آذانهم دون الأنامل مبالغة فى الصدد والإعراض، كما يأتى ذلك متجاوبا مع ذلك الإصرار على الكفر والإعراض الذى وصفتهم به الآية الكريمة.

٣- اختيار صيغة ذات معنى متعدد

يعد هذا المبحث تطبيقا لظاهرة المشترك الصيغى أو تعدد المعنى الواحد للصيغة الواحدة، التى سبق أن تعرضنا لتأصيلها فى مبحث الدلالة بين تعدد الصيغة وتعدد المعنى.

وقد أحببت أن أفرد نماذج تلك الظاهرة فى مبحث خاص بها؛ لأنى رأيت أن أمثلة ونماذج تلك الظاهرة من الكثرة بحيث تكاد تمثل ظاهرة أسلوبية يتميز بها التوظيف البلاغى لصيغة الكلمة فى القرآن الكريم خاصة؛ بل رأيت أن هذه الظاهرة من أوضح البراهين الدالة على الإعجاز البيانى لكتاب الله المعجز.

فمن أمثلتها: قوله تعالى﴿ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ (المؤمنون: ٢٩) عبرت الآية بصيغة **(مفعل)** فى **(منزلا)** وهذه الصيغة صالحة لكى تكون اسم مفعول من الفعل (أنزل) ومصدرا منه واسم مكان(٣٢٥).

وهى هنا فى الآية تحتمل أن تكون مصدرا أى: أنزلنى إنزالا مباركا، وتحتمل أن تكون اسم مكان أى أنزلنى مكانا مباركا(٣٢٦). ويصعب فى مثل هذا الموضع أن نجزم بأحد المعنيين، والذى نرجحه والله أعلم بمراده أن كلا المعنيين مراد فالسياق لا يأبى أحدهما، فالحمل على المصدر يجعل المراد طلب البركة من الله فى الحدث نفسه فيكون هبوطه ونزوله مباركا من الله تعالى، والحمل على المكان يجعل المراد طلب البركة من الله تعالى فى المكان الجديد الذى رست عليه سفينة نوح عليه السلام، ولا شك أن كلا الأمرين كانا مطلوبين لنوح عليه السلام أن يبارك الله له فى إنزاله وفى

(٣٢٥) انظر نزهة الطرف لابن هشام ص ١٠٦.

(٣٢٦) انظر نزهة الطرف لابن هشام ص ١٠٦، وانظر الكشاف ٤٦/٣، ٤٧، والمحرر الوجيز ١٤٢/٤، والدر المصون ٥ ١٨٠، والألوسى ٢٨/١٧.

مكان نزوله، ومن ثم فلا مانع هنا فى هذا السياق من حمل الصيغة على كلا معنييها ويكون ذلك من بلاغة القرآن وإعجازه وحسن إيجازه ومن ثم يكون اختيار تلك الصيغة هنا فى غاية الجودة لما تشتمل عليه من إيحاءات وظلال معنوية تغطى كافة المعانى المحتملة فى ذلك الموقف.

وعلى كل نقول: إن كان لا بد لنا من ترجيح أحد معانى تلك الصيغة هنا، فنحن نرجح إرادة المكان على المصدر وذلك لأن هذا الموقف فيما نرى يعبر عن جانب نفسى لدى نوح عليه السلام وهو تلك المشاعر التى يمكن أن تستولى عليه عند رسو السفينة فى ذلك المكان الجديد الموحش حيث أهلك الله تعالى قوم نوح عليه السلام، وغدت الأرض بعدهم يلاقع لا حياة فيها ولا أنيس حتى من الوحش أو الطير، فلا شك أن يكون ذلك المكان الجديد مصدرًا للخوف والقلق يدعوا المرء أن يتوجه إلى ربه بطلب بركته على هذا المكان حتى يستطيع نوح ومن معه من المؤمنين أن يستأنفوا فيه حياة جديدة وهذا بلا شك موقوف على أن يأذن الله تعالى لتلك الأرض الجديدة أن تخرج خيرها، وأن يبارك فيها.

ومع هذه المحاولة منا لترجيح أحد معنيى الصيغة، فإن الصيغة تظل بعد ذلك محتملة كلا المعنيين أو نقول إنها تدل على أحد المعنيين بالأصالة وتفيد فى الوقت نفسه من ظلال المعنى الآخر مما يودى إلى إثراء المعنى.

وهذه الصيغة لها نظائر فى قول الله تعالى:

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً﴾ (النساء: ٣١) هى تحتمل كسابقتها كذلك أن تكون مصدرا أو اسم مكان[٣٢٧] والمصدر له وجه وهو أن يكون الإدخال نفسه كريما، ألا ترى كيف غاير الله تعالى فى التعبير عن إدخال كل من الفريقين إلى مستقره فى سورة الزمر فقال: **﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها﴾** ...، **﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾** ... (الزمر: ٧١-٧٣) فأتى بواو الحال مع أهل الجنة كأنه قيل حتى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها[٣٢٨] فهذا يدل على أن الحمل على المصدر فى قوله تعالى**﴿ مُّدْخَلاً كَرِيماً﴾** ليس بعيدا، وكذلك الحمل على المكان وهو الجنة وحسبك به مدخلا كريما. فالحمل على المعنيين فى مثل هذا الموضع من الإعجاز القرآنى بمكان كذلك لما فيه من تناغم المعانى واتساقها وتآزرها على توفية المقام حقه، وهو الترغيب فى اجتناب مناهيه وزواجره سبحانه وتعالى.

---

(٣٢٧) انظر الدر المصون ٣٥٣/٢.

(٣٢٨) انظر الكشاف ٣٥٨/٣، وانظر الجلالين ص ٦١٦.

ومن نظائر ذلك الموضع كذلك قوله تعالى فى سورة الحج فى وصف الشهداء والمهاجرين فى سبيل الله ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلاً يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (الحج: ٥٩) تحتمل المعنيين كذلك: المصدر أو اسم المكان[٣٢٩] وفيما ذكره الألوسى ترشيح لكلا المعنيين قال:" مدخلا إما اسم مكان أريد به الجنة كما قال السدى وغيره أو درجات فيها مخصوصة بأولئك المهاجرين كما قيل، وقيل هو خيمة من درة بيضاء لا فصم فيها ولا وصم لها سبعون ألف مصراع، أو مصدر ميمى وهو على الاحتمال الأول مفعول ثان للإدخال وعلى الثانى مفعول مطلق، ووصفه بيرضونه على الاحتمالين لما أنهم يرون إذا أدخلوا مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقيل على الثانى : إن رضاهم لما أن إدخالهم من غير مشقة تنالهم بل براحة واحترام[٣٣٠].

وأرى والله أعلى وأعلم أن هذه المواضع السابقة كلها يجوز فيها الحمل على المعنيين جميعا أو ترجيح الحمل على المكان مع إفادة الصيغة بظلال معنى المصدر.

وبينما يترجح هنا فى هذه المواضع السابقة معنى الحمل على المكان، فثمة موضع آخر يترجح فيها الحمل على المصدر، وذلك كما فى قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً﴾ (الإسراء: ٨٠)

قال ابن جرير" واختلف أهل التاويل فى معنى مدخل الصدق الذى أمر الله نبيهﷺ أن يدخله إياه وفى مخرج الصدق الذى أمره أن يرغب إليه فى أن يخرجه اياه"[٣٣١].

ثم حكى هذه الأقوال وعقب عليها بقوله: وأشبه هذه الأقوال بالصواب فى تأويل ذلك قول من قال معنى ذلك وأدخلنى المدينة مدخل صدق وأخرجنى من مكة مخرج صدق وإنما قلنا ذلك أولى بتأويل الآية لأن ذلك عقيب قوله﴿ وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذاً لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ وقد دللنا فيما مضى على أنه عنى بذلك أهل مكة فإذا كان ذلك عقيب خبر الله عما كان المشركون أرادوا من استفزازهم رسول الله ﷺ ليخرجوه عن مكة كان بينا إذا كان الله قد أخرجه منها أن قوله وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق أمر منه له بالرغبة إليه

---

(٣٢٩) انظر الألوسى ١٨٩/١٧، والجلالين ٤٤١.

(٣٣٠) انظر الألوسى ١٨٩/١٧.

(٣٣١) انظر الطبرى ١٠٠/١٥.

فى أن يخرجه من البلدة التى هم المشركون بإخراجه منها مخرج صدق وأن يدخله البلدة التى نقله الله إليها مدخل صدق"[٣٣٢].

والراجح من أقوال المفسرين فى الآية هو ما رجحه الطبرى وهو ترجيح الجلالين[٣٣٣] وهو ما يدل عليه السياق كما بينه إمام المفسرين الطبرى (رحمه الله) والذى يرجح لدينا معنى الحمل على المصدرية فى الآية هو الوصف بالصدق، فحمله على المصدر أولى وأليق من حمله على المكان، لأن المعنى كما قال فى الجلالين (أدخلنى) المدينة (مدخل صدق) إدخالا مرضيا لا أرى فيه ما أكره (وأخرجنى) من مكة (مخرج صدق) إخراجا لا ألتفت بقلبى إليها"[٣٣٤] ومن ثم جاء الوصف للإدخال والإخراج نفسه بالصدق لأنه منظور فيه إلى حال المدخل والمخرج وهو محمد ﷺ ومدى انقياده لأمر الله تعالى واستسلامه له، وعدم تعلق قلبه بوطنه ومهده الأول، والتفاته عن ذلك كله بهجرة صادقة إلى الله تعالى.

ومن ثم يترجح المصدر مع الإفادة بظلال وصف المكان الذى سيدخله النبى ﷺ وهو المدينة بكونه مدخل صدق وحق، ويصدقه الله فيه ما وعده من النصر والفتح والظهور.

وقد يحتمل السياق - والله أعلم - جواز حمل (مخرج) على المكان أيضا مرادا به المكان الذى سيخرج إليه النبى ﷺكذلك ويكون ذلك من باب التوكيد المعنوى، وإن كار جح الواضح وعليه كلام المفسرين هو الحمل على المصدر وهو

ومن أمثلة اختيار صيغة ذات معنى متعددة كذلك: قوله تعالى:﴿**بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ**﴾ (القيامة: ١٤)

حيث ذكروا فيه ثلاثة أقوال:

الأول: أن البصيرة اسم مصدر، وهو قول الأخفش: جعله هو البصيرة كما تقول للرجل: أنت حجة على نفسك"[٣٣٥].

---

(٣٣٢) انظر الطبرى ١٠١/١٥، وانظر الكشاف ٣٧٢/٢.

(٣٣٣) انظر الجلالين ص ٣٧٥.

(٣٣٤) انظر الجلالين ص ٣٧٥.

(٣٣٥) انظر عانى القرآن ٥٧١/٢.

والثانى: أنه وصف مبالغة، وهو قول أبى عبيدة" جاءت هذه الهاء فى صفة الذكر كما جاءت فى رواية وعلامة وطاغية"[٣٣٦].

الثالث: أن البصيرة هى" جوارحه تشهد عليه بما عمل"[٣٣٧].

وهذه الأقوال الثلاثة مما يحتملها سياق الآية، ولا مانع من حمل المعنى عليها جميعا، فالسياق لا يأباه بل يأتلف معها أتم الائتلاف؛ فالإنسان فى هذا اليوم بصير على نفسه أتم البصر فقد انكشف عنه غطاء الغفلة والشهوات حيث قال له **﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾** (ق: ٢٢) حيث جاء البصر موصوفا بحديد على سبيل المبالغة، مما يشعر بقوة البصر والبصيرة فى هذا اليوم وله من جوارحه بصيرة تشهد له وعليه[٣٣٨] وهو نفسه بصيرة أى حجة على نفسه، ومن ثم تتلاقى ظلال تلك المعانى جميعا لإثراء المعنى[٣٣٩].

ومن ذلك أيضا الاشتراك الواقع فى صيغة (فعيل) فى قوله تعالى: **﴿وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾** (ق: ٤) صيغة فعيل هنا (**حفيظ**) هى إما بمعنى (**حافظ**) أو بمعنى (**محفوظ**) وهاتان الصفتان ليستا لشيئين مختلفين وليستا متناقضتين معا؛ بل يصح وصف الشىء الواحد بهما معا، فلا يمتنع أن يوصف الكتاب وهو اللوح المحفوظ بأنه" محفوظ من الشياطين ومن التغير، أو حافظ لما أودعه وكتب فيه"[٣٤٠]. كما قال الزمخشرى.

ويصعب الترجيح فى مثل هذا الموضع كذلك؛ وإن كانت قرينة السياق يمكن أن تعيننا فى ترجيح المعنى الثانى دون الأول.

قال تعالى: **﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ *بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾**

---

(٣٣٦) انظر مجاز القرآن٢/٢٧٧.

(٣٣٧) انظر الرازى ٢٧/١٦ وقد ذكر هذه الأقوال الثلاثة بشىء من التفصيل، وانظر بصائر ذوى التمييز، وأحب أن أشير إلى أن المعنى الثالث: ليس من المعانى الوظيفية للصيغة ولكنه داخل فيما تحتمله الصيغة.

(٣٣٨) انظر المفردات للراغب ص ٤٩.

(٣٣٩) انظر الفيروزآبادى ٢/ ٢٢٢.

(٣٤٠) الكشاف ٨/٤.

(ق: ١-٥) فسياق الآيات يدل على أنهم يستبعدون إحصاء الله تعالى لذرات أجسادهم بعد أن تغيب فى الأرض، وذلك كما ذكر الله تعالى عنهـــم:﴿ **وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾ (السجدة: ١٠) أى أئذا" غبنا فيها بأن صرنا ترابا مختلطا بترابها"[٣٤١] فكأن مثار الشك أو الجدل لذى هؤلاء الكافرين هو فى كون الكتاب حافظا لذرات أجسادهم؛ لا فى كونه محفوظا؛ ولكن آثرا التعبير القرآنى المعجز صيغة (**فعيل**) لكى يثبت كلا المعنيين: كونه حافظا، وكونه محفوظا؛ وذلك لأنه إذا كان المراد هو إثبات كونه حافظا؛ فإن مما يتم به المعنى أن يكون الكتاب محفوظا كذلك من التغيير والتبديل؛ إذ لا يتم الحفظ إلا بذلك.

ومن ثم نرى أن اختيار القرآن الكريم للصيغة ذات المعنى المتعدد على بدائلها ذات المعنى الواحد يعد من الأدلة الواضحة على الإعجاز البيانى لهذا الكتاب الخالد.

---

(٣٤١) تفسير الجلالين ص ٥٤٦.

الأساس الثانى

العـدول

ثمـة أسـاس آخـر للإعجـاز الأسـلوبي لـصيغة الكلمـة نـستطيع أن نلمـح وقـوف البلاغيين عليه واعتماده لديهم أساسا للكشف عن الدور البلاغى لصيغة الكلمة وهذا الأساس الثانى هو ما أطلق عليه فى تراثنا البلاغى مصطلح العدول. فإذا كانت البلاغة ترجع فى سائر تعريفات البلاغيين التى سبق ذكرها إلى حسن تخير اللفظ، فإنه مما يجدر بنا التنبيه إليه أن هذا التخير أو الاختيار للفظ يمثل فى غالب الأحيان أنواعا من العدول.

فالاختيار فى حقيقته إنما هو عدول عن المستوى النمطى أو العادى من اللغة إلى المستوى الفنى من الكلام وقد يمثل تخير اللفظ نوعا من العدول عن النظام اللغوى أو عن الاستخدام الشائع، أو عدولا داخليا وهو ما يسميه ريفاتير بالعدول السياقى ، وهو العدول المعتبر لدينا بخلاف تلك النظرة الأخرى التي تكاد تفرق في النظر للأسلوب بين كونه اختيارا أو عدولا ؛ ولذلك ترددت تعريفاتهم للأسلوب بين كونه اختيارا أو عدولا.[٣٤٢]

وهذا الذي توصل إليه الأسلوبيون قد كان للزمخشرى النصيب الأعظم من الالتفات إليه فى القرآن الكريم، وتبعه على هذا النهج كافة من جاء بعده من المفسرين حتى إن بعضهم لا يزيد فى كثير من المواضع على أن يحكى عبارة الزمخشرى فى بيان ما اشتملت عليه الآية من اختيار أو عدول فى جانب الصيغ، والحق أنه ما أبلى أحد فى هذا الأمر ما أبلاه ضياء الدين بن الأثير ت ٦٣٧ هـ فى كتابه "المثل السائر" من كلامه فيما سماه تارة بالعدول، وتارة بالنقل أو الانتقال وذلك فى الفصل الذى عقده بعنوان" قوة اللفظ لقوة المعنى"[٣٤٣] ومما يقتضيه المقام هنا أن نقف عند توظيفه لمصطلح العدول كأساس من أسس التوظيف البلاغى لصيغة الكلمة.

فمن ذلك ما ذكره عند قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ (القمر:٤٢) حيث يقول:" فمقتدر هنا أبلغ من قادر، وإنما عدل إليه للدلالة على التفخيم للأمر.."[٣٤٤] فهو يلمح ما فى الآية من عدول عن الأصل اللغوى (قادر) على صيغة

---

(٣٤٢) انظر ماسبق ذكره في تعريف الأسلوب في الفصل الأول.

(٣٤٣) المثل السائر ٢/٢٤١- ٢٤٧ انظر الفصل الخاص بالعلاقة بين الصيغة والمعنى فى الباب الأول من الرسالة.

(٣٤٤) المثل السائر ٢/٢٤١-٢٤٧.

اسم الفاعل إلى الصيغة الأخرى المنتقل إليها وهى (مقتدر) على صيغة (مفتعل) والذى نراه أن الأشبه بالصواب فى هذا الموضع هو مصطلح الاختيار لا العدول عند كل من أبى هلال والباقلانى فيما سبق نقله عنهما فابن الأثير يقول: "فمقتدر ها هنا أبلغ من قادر" فقوله: ها هنا يدل أن المقارنة بين الصيغتين ليست مقارنة مطلقة أى فى حالة الإفراد، وإنما هى مقارنة مقيدة بمدى الفنية فى هذا التركيب بعينه، ومن ثم فإن افتراض أن أصل التعبير فى هذا السياق هو اسم الفاعل (قادر)، افتراض لا مبرر له ولذا فالأقرب أن يكون المراد بالعدول هنا نوعا من الاختيار، لأن الاختيار فى حقيقته إنما هو عدول عن لفظ لآخر.

وقد يقال إن العدول فى هذه الأمثلة التى اعترضنا على إطلاق لفظ العدول عليها إنما هو باعتبار الخروج فيها عن الأصل اللغوى لا عن الأصل السياقى؛ فكأنها إنما عدل فيها عن الأصل المستخدم فى حالة الإفراد لا فى حالة التركيب.

فنقول: الأصل اللغوى: إما أن ينظر إليه فى السياق أو خارج السياق، فالنظر إليه خارج السياق إنما هو شأن الصرفى لا البلاغى.

أما شأن البلاغى فهو أن ينظر إلى الأصل اللغوى داخل السياق لا خارجه أى فى حالة التركيب لا فى حالة الإفراد وذلك كما سبق تأسيسه فى المباحث التمهيدية من البحث وحينئذ يتحد لديه الأصل اللغوى مع الأصل السياقى ومثال ذلك أن ننظر إلى أن الأصل اللغوى فى قولهم: (زيد نهاره صائم وليله قائم) هو نهاره مصوم فيه وليله مقوم فيه وهذا يعنى أنه قد عدل فى هذا السياق عن الأصل اللغوى.

والذى جعلنا نفترض أن التعبير باسم المفعول هو الأصل أن هذا هو ما يقتضيه سياق الكلام وصحة تركيبه لغة وعقلا فإذا عدل عن ذلك مع وجود ما يسوغه لغة، فإن هذا المسوغ إنما هو تلك النكتة البلاغية التى عدل عن الأصل اللغوى لأجلها.

فهذا النوع قد دل على العدول فيه سياق الكلام كما يدل عليه كذلك نظام اللغة أما الأمثلة التى ذكرها ابن الأثير من نحو العدول عن قادر إلى مقتدر، وذكرها أبوهلال وغيره من نحو العدول عن راحم إلى رحيم ورحمن فالأشبه عندى بالصواب أنها من قبيل الاختيار لا من قبيل العدول، وذلك لأن العدول لا يكون إلا عن أصل أو قاعدة ، ولايصح هنا افتراض لغوى ولا أصل سياقى إلا أن يكون المقصود بالعدول هنا هو العدول عن المعنى النمطى إلى المعنى الفنى وهذا النوع من العدول لا يكاد يفترق عن الاختيار فى شىء بل هو حقيقة الاختيار ومن ثم لا نرى ما يدعو إلى تخصيصه باسم مستقل عن الاختيار. أما ما يصح تخصيصه بمصطلح العدول فهو ما يكون العدول فيه عن الأصل السياقى للكلام خاصة إذا ما اتسع مصطلح السياق لدينا ليشمل

البيئة الزمانية والمكانية التى قيل فيها النص كذلك؛ بحيث يفترض أن يتجرد المتلقى للنص عن ذاته ويعد نفسه أحد المخاطبين بهذا النص فى البيئة التى قيل فيها.

ومن أمثلة هذا العدول السياقى عند ابن الأثير تلك الأمثلة التى عرض لها ابن الأثير فى حديثه عن القسم الثانى من الالتفات حيث قسم الالتفات إلى ثلاثة أقسام:

الأول: وهو ما يختص بالضمائر[٣٤٥] وهو ما يقع خارج دائرة البحث.

الثانى والثالث: يختصان بالالتفات أو الانتقال الواقع فى صيغ الأفعال، وهو ما يعنينا فى هذا البحث.

فمما جاء منه قوله تعالى﴿ **قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ** ﴾ (هود:٥٤)؛ فإنه إنما قال" أشهد الله واشهدوا" ولم يقل وأشهدكم ليكون موازنا له لأن إشهاده الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بهم، ودلالة على قلة المبالاة بأمرهم، ولذلك عدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما، وجيء به على لفظ الأمر كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه:" اشهد على أنى أحبك" تهكما به واستهانة بحاله[٣٤٦]

فالعدول هنا فى كلام ابن الأثير قد وظف توظيفا صحيحا لأنه عدول عن الأصل السياقى؛ وذلك لأن السياق يقتضى (وأشهدكم) بصيغة المضارع إلا أنه قد عدل عن هذا الأصل السياقى للنكتة التى بينهما ابن الأثير.

ويمضى ابن الأثير فى عرض أمثلة هذا النوع من الالتفات فيقول:" وكذلك يرجع عن الفعل الماضى إلى فعل الأمر إلا أنه ليس كالأول، بل إنما يفعل ذلك توكيدا لما أجرى عليه فعل الأمر لمكان العناية بتحقيقه كقوله تعالى﴿ **قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**﴾ (الأعراف: ٢٩) وكان تقدير الكلام: أمر ربى بالقسط وبإقامة وجوهكم عند كل مسجد فعدل عن ذلك إلى فعل الأمر للعناية بتوكيده فى نفوسهم، فإن الصلاة من أوكد فرائض الله على عباده ثم أتبعها بالإخلاص الذى هو عمل القلب، إذ عمل الجوارح لا

---

(٣٤٥) المثل السائر ١٦٨/٢.

(٣٤٦) المثل السائر ص ١٧٩-١٨٠.

يصح إلا بإخلاص النية ولهذا قالﷺ "الأعمال بالنيات"[٣٤٧] وواضح هنا كذلك أن العدول هنا عن أصل يقتضيه السياق وهو ما قدره ابن الأثير فى كلامه السابق.

ونستطيع أن نتبين هذا السياق الذى تم العدول عنه كذلك فى أمثلة القسم الثالث الذى ذكره ابن الأثير من أقسام الالتفات وهو فى الإخبار عن الفعل الماضى بالمستقبل، وعن المستقبل بالماضى، وذلك فى قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ**﴾ (فاطر:٩) فالأصل الذى يقتضيه السياق هنا هو (فأثارت) وعدل عنه لغرض بلاغى وعلى هذا ورد قول تأبط شرا:

بأنى قد لقيت الغول تهوى ... بسهب كالصحيفة صحصحان

فأضربها بلا دهش فخرت ... صريعا لليدين وللجران[٣٤٨]

فأصله: (فضربتها) وعليه ورد قوله تعالى أيضا ﴿ **ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لله غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** ﴾ (الحج: ٣١-٣٢) فقال أولا:" خرّ من السماء" بلفظ الماضى، ثم عطف عليه المستقبل لاستحضار صورة خطف الطير إياه وهوى الريح به[٣٤٩]. وتقرير الأصل السياقى فيه (فخطفته الطير أو هوت به الريح) وهكذا فى سائر الأمثلة التى عرض لها ابن الأثير.

والمقصد من ذلك هو الخروج بنقطة هامة وهى أن العدول فى هذه الأمثلة كلها إنما هو عدول عن الأصل السياقى المقدر فالسياق هو الذى دل على العدول فى تلك الأمثلة كلها، ومن ثم يصح أن نعتبر السياق هو الأصل أو القاعدة التى تنحرف عنها الصيغة أو تعدل عنها إلى صيغة جديدة خالفت السياق لنكتة أو غرض بلاغى تطابق به مقتضى الحال وتتحقق به المعانى الفنية المطابقة التى هى غاية البلاغة.

وهذا هو الظاهر فى القاعدة التى يحدد ابن الأثير العدول على أساسها فى تلك الأمثلة السابقة.

---

(٣٤٧) المثل السائر ص ١٨٠.

(٣٤٨) المثل السائر ص ١٨٣.

(٣٤٩) المثل السائر ص ١٨٣-١٨٤.

هذا وقد وقف ابن الأثير أمام ظاهرة العدول فى الصيغ فى مبحث أفرده لذلك سماه اختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها[٣٥٠] وسوف نقف هنا على أهم ما جاء فيه مما يتعلق بظاهرة العدول فى الصيغ.

قال ابن الأثير: "أما اختلاف صيغ الألفاظ فإنها إذا نقلت من هيئة إلى هيئة كنقلها مثلا من وزن من الأوزان إلى وزن آخر وإن كانت اللفظة واحدة أو كنقلها من صيغة الاسم إلى صيغة الفعل أو من صيغة الفعل إلى صيغة الاسم أو كنقلها من الماضى إلى المستقبل أو من المستقبل إلى الماضى، أو من الواحد إلى التثنية أو إلى الجمع أو إلى النسب أو إلى غير ذلك انتقل قبحها صار حسنا، وحسنها صار قبحا.. فذكر أمثلة ثم قال:" ومن هذا النوع ألفاظ يعدل عن استعمالها من غير دليل يقوم على العدول عنها ولا يستفتى من ذلك إلا الذوق السليم وهذا موضع عجيب لا يعلم كنه سره" (٣٣) هذا النوع إذاً - على ما يرى ابن الأثير لا ضابط له ولا حاكم فيه إلا الذوق السليم، والذى أراه أن الإحالة على الذوق إحالة على غيب، وعلى أمر يتفاوت فيه الناس، بلا ضابط يضبطهم ولا حاكم يحكمهم، وإن كان هذا لا يعنى أننا ننكر أمر الذوق؛ فهذا مما لا ينكر؛ بل لولاه ما اهتدى مهتد إلى حسن ولا قبح، ولا فصاحة ولا عى؛ إلا أن ما ننكره أن يكون الذوق مشجبا لكل من عجز عن بيان علة حسن الشىء أو قبحه؛ فيعلق حسن ذلك الشىء أو قبحه على الذوق دونما تعليل ولا بيان.

---

(٣٥٠) المثل السائر ٢٩٣/١ وتبعه فيه الطيبى ٥٠٠/٢-٥٠٣.

النماذج التفصيلية للعدول

١- العدول إلى صيغة الاسم

العدول فى المصادر

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّاباً﴾ (النبأ: ٢٨) حيث عدل فيه عن المصدر تكذيبا لأجل الإيقاع، ولما يدل عليه من المبالغة فى التكذيب أكثر من المصدر الأصلى خاصة وأن أغلب ما يكون العدول يكون للمبالغة[٣٥١]. ويدل على رعاية الإيقاع كذلك تكرر ذلك المصدر بعينه فى نفس السورة فى قوله تعالى ﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً وَلاَ كِذَّاباً﴾ (النبأ:٣٥) وكأن ذلك من حسن الجزاء للمتقين الداعين إلى الله حيث قوبلوا فى الدنيا بذلك الكذاب، فعصمهم الله فى الآخرة أن يسمعوا فيها لغوا أو كذابا.

من ذلك قوله تعالى﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾ (المزمل: ٨) حيث عدل عن المصدر (تبتلا) إلى (تبتيلا) وقد جرى معظم المفسرين الذين تعرضوا لبيان سر العدول فى هذا الموضع على تعليله برعاية الفواصل[٣٥٢].

قال الزمخشرى (فإن قلت: كيف قيل(تبتيلا) مكان (تبتلا) ، قلت لأن معنى تبتل: بتل نفسك فجيء به على معناه مراعاة لحق الفواصل[٣٥٣].

فالزمخشرى - وتبعه فى ذلك الألوسى - جعل (تبتل) هنا بمعنى بتل، ولكن هذا يثير سؤالا آخر وهو لماذا عدلت الآية إذا عن بتل إلى (تبتل) ؟ والأقرب من هذا وهو الأصوب أن نقول: لماذا عدلت الآية عن عن (التبتل) إلى (التبتيل)؟ وهل السر فى هذا العدول هو مجرد رعاية الفاصلة؟

قال الألوسى:" (تبتيلا) ونصبه(تبتل) لتضمنه بتل على ما قيل"[٣٥٤].

---

(٣٥١) انظر الكشاف ١٧٨/٤، والدر المصون ٤٦٥/٦، ٤٦٦، ٤٦٧، المحرر ٤٢٨/٤٢٧/٥ والألوسى ١٦/٣٠، ١٧، ١٨، ومعانى القرآن ٥٢٥/٢.

(٣٥٢) انظر الكشاف ١٥٣/٤ / الألوسى ١٠٦/٢٩، والدر المصون ٤٠٥/٦، والجلالين ص٧٧٣ والقرطبى ٦٨٣٦/١٠.

(٣٥٣) انظر الكشاف ١٥٣/٤.

(٣٥٤) انظر الألوسى ١٠٦/٢٩.

والسر فى هذا العدول عندى والله تعالى أعلم هو تضمين المصدر تبتيلا معنى(التبتل) أيضا، وذلك كما يضمن الفعل معنى فعل آخر عن طريق تعديته بغير الحرف الذى يعدى به، وذلك على نحو قوله تعالى ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ﴾ (الأنبياء:٧٧) أى نجيناه من القوم، حيث أراد أن يبين سبحانه أن هذا النصر لم يكن بالغلبة وإنما كان بالتنجية من أذى قومه، فعداه بـ (من) وكان حقه أن يعدى بـ(على) وذلك ليضمنه معنى نجيناه أى ونجيناه وخلصناه منتصرا من القوم"[٣٥٥].

والتضمين فى الأفعال معروف ومشهور، وبنحوه التضمين فى المصادر كما فى هذا الموضع وكما فى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً﴾ [٣٥٦] (نوح:١٧)،

والمقصد أن نبين أن الله تعالى فى هذا الموضع قد ضمن الفعل (تبتل) معنى (بتل)، وضمن المصدر (تبتيلا) معنى (تبتلا)، وكأن المقصود من المخالفة بين الفعل ومصدره هى الإفادة بكلا المعنيين اللذين اشتمل عليهما كل من الفعل والمصدر.

فالفعل (تبتل) على صيغة (تفعل) ، و(تفعل) تأتى لمعان منها التكلف، كتصبر وتحلم: تكلف الصبر والحلم[٣٥٧]

ومن ثم نرى أنه قد أتى بالتبتل وهو على وزن التفعل الدال على التكلف والمحاولة كما فى قول النبى ﷺإنما العلم بالتعلم وإنما الحلم بالتحلم.. الخ فأتى بالتبتل فى الأمر ليتضمن معنى التكلف والتحمل، والتصبر على المشاق مخالف لمألوف النفوس، وذلك لأن النفس لم تتعود العزلة والانقطاع ففى هذا الأمر مشقة عليها تحتاج إلى تكلف ومجاهدة ومحاولة حتى تعتاده النفس ويسهل عليها.

وأتى فى المصدر" بتبتيلا" وهو على وزن" تفعيل" الدال على التكثير[٣٥٨] ليدل على أن المراد هو الإكثار من هذا التبتل والانقطاع، وذلك لحاجة الداعى إليه فى أول الطريق حتى ينال نصيبه من زكاة النفس، ومجاهدتها، وجمعها على محبوبها وفاطرها استغناء به عمن سواه، وتوكلا عليه دون غيره. وبهذا يتضمن الأمر معنى المحاولة والمجاهدة مع الإكثار من التبتل المطلوب للداعى ليكون زادا له فى دعوته للناس.

---

(٣٥٥) انظر ابن كثير ١٨٦/٣.

(٣٥٦) انظر الألوسى ١٠٦/٢٩،٧٥.

(٣٥٧) انظر شذا العرف ص ٤٥.

(٣٥٨) انظر شذا العرف ص ٤٣.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن من معانى(تفعل)" مطاوعة" فعل"مضعف العين، كنبهته فتنبه، وكسرته فتكسر"[٣٥٩] فإنه يزداد إدراكنا لذلك الإعجاز القرآنى فى ذلك العدول فى الصيغة فى هذا الموضع، حيث نقف على سر آخر للعدول، وهو أن السبب فى إيثار (تبتّل) على (بتّل) أن (تبتّل) مطاوع (بتّل) حيث يقال (بتله فتبتل) فحينما عدلت الآية عن مصدر تبتل إلى مصدر بتل فإنها ضمنت الفعل تبتل معنى(بتل) وهذا يشعر أن هذا التبتل قد حدث بعد كثرة تبتيل للنفس، حيث قال الرازى:" الواجب أن يقال: وتبتل إليه تبتلا أو يقال بتل نفسك إليه تبتيلا لكنه تعالى بم يذكرهما واختار هذه العبارة الدقيقة وهى أن المقصود بالذات إنما هو التبتل فأما التبتيل فهو تصرف والمشتغل بالتصرف لا يكون متبتلا إلى الله لأن لابُدَّ المشتغل بغير الله لا يكون منقطعا إلى الله، إلا أنه أولا من التبتيل حتى يحصل التبتل كما فى قوله تعالى﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ (العنكبوت: ٦٩) فذكر التبتل أولا إشعارا بأنه المقصود بالذات وذكر التبتيل ثانيا إشعارا بأنه لا بد منه ولكنه مقصود الغرض[٣٦٠].

فحاصل كلام الرازى وحقيقته الانقطاع إلى الله تعالى عما سواه. ومن ثم فحاصل الوجه الأول الذى ذكرناه آنفا أن التبتل يأتى أولا لاشتماله على التكلف والمحاولة، وحاصل الوجه الذى وجهنا به كلام الرازى أن التبتيل يأتى أولا لتوقف حصول التبتل عليه والذى أراه والله تعالى أعلم أن يكون التفعل بذلك من الأضداد حيث يدل على ابتداء، الشىء ومنتهاه، فحيث ينظر فيه إلى معنى التكلف والمحاولة فهو الابتداء، وحيث ينظر فيه إلى مطاوعة (فعل) فهو الانتهاء فهو حينئذ نتيجة لحدث سابق (بتُل نفسه فتبتلت) ومن ثم فلا تعارض فالسالك إلى الله تعالى مأمور فى بادىء أمره بالتبتل بمعنى التكلف والمحاولة ولكى يصل إلى التبتل بمعنى النتيجة ومطاوعة النفس له على التبتل والانقطاع إلى الله.

ومن ثم يكون فائدة العدول هنا تضمين كل من الفعل والمصدر أحدهما معنى الآخر، ومن ثم يكون كلا الأمرين مطلوبين للسالك إلى الله فلا غنى له عن تكلف التبتل ومحاولته ليحمل نفسه عليه لثقله عليها أول أمره، ولا بد من إكثار التبتل ومحاولته حتى تعتاده النفس وتطاوع له. ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ أَنْبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً**﴾ (نوح: ١٧) حيث عدلت الآية عن المصدر (إنباتا) إلى (نباتا)، وقد علل أغلب المفسرين للاختيار فى (أنبتكم) أنه ضمنه معنى الإنشاء[٣٦١] وكان الأولى

---

(٣٥٩) انظر شذا العرف ص ٤٥.

(٣٦٠) انظر الرازى ١٥/٨٠٥، ٨٠٦.

(٣٦١) الألوسى ٢٩/ ٧٥- الدر المصون ٦/٣٨٤- الكشاف ٤/١٢٤.

أن يبينوا سر العدول فى اسم المصدر (نباتا) إلا أنهم اكتفوا بتوجيهه بقولهم (والمعنى: أنبتكم فنبتم نباتا)[٣٦٢].

أما الرازى فقد كان أطول عنقا فى رمق سر هذا العدول حيث قال: كان ينبغى أن يقال أنبتكم إنباتا إلا أنه لم يقل ذلك بل قال أنبتكم نباتا، والتقدير أنبتكم فنبتم نباتا. وفيه دقيقة لطيفة وهى أنه لو قال أنبتكم إنباتا كان المعنى أنبتكم إنباتاً غريبا، ولما قال أنبتكم نباتا كان المعنى أنبتكم فنبتم نباتا عجيبا. وهذا الثانى أولى لأن الإنبات صفة لله تعالى وصفة غيرالله محسوسة لنا، فلا نعرف أن ذلك الإنبات إنبات عجيب كامل إلا بواسطة إخبار الله تعالى.. وأما لما قال "أنبتكم من الأرض نباتا" على معنى أنبتكم فنبتم نباتا عجيبا كاملا كان ذلك وصفا للنبات بكونه عجيبا كاملا، وكون النبات كذلك أمر مشاهد محسوس فيمكن الاستدلال به على كمال قدرة الله تعالى، فكان هذا موافقا لهذا المقام. فظهر أن العدول من تلك الحقيقة إلى هذا المجاز كان لهذا السر اللطيف[٣٦٣]

فالإنبات إنما ينظر فيه إلى صنع الله عز وجل وهو خفى، فعدلت الآية عنه إلى ما هو ظاهر وهو النبات حيث تتجلى فيه مظاهر الإبداع والقدرة، فكان ذلك أقوى مناسبة لمقام بيان قدرة الله تعالى ولطف صنعه، والامتنان على عباده بنعمه، وسياق الآيات يساعد ذلك المعنى أتم المساعدة.

العدول إلى اسم المرة

وذلك كما فى قوله تعالى إخبارا عن قوم نوح وتكذيبهم لنبيهم عليه السلام: ﴿**قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (الأعراف :٦٠-٦١) ويمكننا أن نلمح بوضوح ذلك العدول فى الآية عن صيغة المصدر (ضلال) إلى صيغة اسم المرة (ضلالة)

وسر هذا العدول يرجع إلى أن الملأ من قوم نوح قد اتهموا نوحا عليه السلام بالضلال اتهاما مؤكدا بإن واللام مبالغا فيه بادعاء رؤيتهم له فى ضلال مبين بما يفيده لفظ الرؤية من اليقين والتثبت ولفظ (فى) من معنى الإحاطة والانغماس فى الضلال، ولفظ (مبين) بصيغة (اسم الفاعل) على ضلال بين واضح ثابت، فناسب ذلك أن يسلك نوح فى نفى هذا الاتهام مسلكا آكد وأبلغ من إثباته فلذا عدل عن صيغة المصدر إلى صيغة اسم المرة وأوقعتها نكرة فى سياق النفى لإفادة العموم، واختار حرف الجر الباء لنفى أدنى ملابسة له بالضلالة. فكأنه قال (ليس بى شىء من

---

(٣٦٢) الكشاف/ السابق، المحرر ٣٧٥/٥، الألوسى السابق، الدر المصون السابق.

(٣٦٣) الرازى ٧٤٣/١٥-٧٤٤.

الضلال)[٣٦٤] أو (ليس بى نوع من الضلال ألبتة، فكان هذا أبلغ فى عموم السلب)[٣٦٥]) وذلك لأن اسم المرة لا يدل إلا على الفعلة الواحدة ونفى الأدنى من نفى الأكثر[٣٦٦] (فيرجع حاصل المعنى ليس بى أقل قليل من الضلال فضلا عن الضلال المبين)[٣٦٧]، ولذا قال الطيبى: (أى ضلالة نزرة)[٣٦٨] ومن ثم أفاد اسم المرة نفى أى نوع من أنواع الضلال، أو نفى أقل القليل منه وهو الأرجح؛ لأن اسم المرة وقع نكرة فى سياق النفى فيعم أدنى وحدة من وحداته الدنيا.

العدول إلى اسم الفاعل

من مواضع العدول إلى اسم الفاعل فى القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ**﴾ (البقرة:١٤٥) حيث عدلت الآية عن التعبير بصيغة الفعل التى عبرت بها فى حق أهل الكتاب إلى صيغة الاسم فى حق النبىﷺ فجاء التعبير باسم الفاعل منفيا لينفى عن النبىﷺ أهليته لهذا الأمر من الأصل، ويؤيد ذلك أن اسم الفاعل يأتى للنسبة ومن ثم كان التعبير باسم الفاعل منفيا لأدنى احتمال فى انتساب النبى ﷺ لمتابعة الكتاب ، وذلك على نحو ما جاء فى قوله تعالى: ﴿**وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ**﴾ [٣٦٩] ولذا قال الألوسى:﴿ **وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ**﴾ أى لا يكون ذلك منك ومحال أن يكون" وقال الزمخشرى" وما أنت بتابع قبلتهم" حسم لأطماعهم[٣٧٠] هذا فضلا عن أن الإخبار باسم الفاعل فى هذه الجملة أدى إلى تكرار الاسم فيها مما زادها تأكيدا ومبالغة فى النفى المؤكد بالباء[٣٧١] وقد استشف صاحب الظلال تلك المعانى السابقة جميعا فعبر عنها فى عبارة واحدة فقال" وما أنت بتابع قبلتهم" ليس من شأنك أن تتبع قبلتهم أصلا. واستخدام الجملة الاسمية المنفية هنا أبلغ فى بيان الشأن الثابت الدائم للرسول ص تجاه هذا الأمر[٣٧٢].

---

(٣٦٤) الكشاف ٦٧/٢.

(٣٦٥) الرازى ١٦٤/٧- انظر البحر المحيط ٣٢١/٤، -- أبو السعود ٢٣٥/٣.

(٣٦٦) انظر الجلالين ص ٢٠٢.

(٣٦٧) الألوسى ١٥١/٨.

(٣٦٨) التبيان للطيبى ١٧١/١.

(٣٦٩) انظر العدول إلى اسم الفاعل.

(٣٧٠) انظر الألوسى ١١/٢، والكشاف ١٠١/١، وانظر الرازى ٥٠٩/٢.

(٣٧١) انظر الدر المصون ٤٠١/١.

(٣٧٢) انظر الظلال ١٣٥/١.

ومن ثم نرى كيف جاءت هذه الصيغة دالة على معنى النفى الحاسم لتيئيس أهل الكتاب من أطماعهم فى اتباع النبى ﷺ لقبلتهم رجاء أن يتبعهم فى دينهم، فجاء التعبير بهذه الصيغة منفية للدلالة على انتفاء أهلية النبى ﷺ لهذا الأمر من أصله، ومن ثم انتفاء نسبته إليه.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾ سورة الكافرون حيث جاء نفى العبادة عن نفسه لآلهتهم الباطلة أولا بصيغة المضارع أعبد، ثم عدل عنه فى خطابهم إلى صيغة الاسم وكان مقتضى السياق أن يقول﴿ **لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ** ﴾، ثم عدل عن المضارع أيضا فى إخباره عن نفسه ثانية فى قوله ﴿**وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ** ﴾ والسر فى هذا العدول فى أغلب الأقوال المذكورة هو شمول الزمان واستيعابه واختلف هل الأول للدلالة على الحال والثانى للاستقبال أو العكس أو كلاهما للحال والاستقبال)[٣٧٣] وقيل (الجملتان الأوليان لنفى العبادة فى المستقبل، والجملتان الأخريان لنفى العبادة فى الماضى)[٣٧٤] وقيل غير ذلك[٣٧٥].

وقال ابن تيمية (رحمه الله) الفعل المضارع هو فى اللغة يتناول الزمن الدائم سوى الماضى، فيعم الحاضر والمستقبل.. فقوله: "لا أعبد" يتناول نفى عبادته لمعبودهم فى الزمان الحاضر والزمان المستقبل، وقوله" ما تعبدون" يتناول ما يعبدونه فى الحاضر والمستقبل وكلاهما مضارع. وقال فى الجملة الثانية عن نفسه﴿**وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ**﴾ فلم يقل" لا أعبد" بل قال ولا أنا عابد" ولم يقل " ما تعبدون" بل قال " ماعبدتم" فاللفظ فى فعله وفعلهم مغاير للفظ فى الجملة الأولى.. والنفى بهذه الجملة الثانية أعم من النفى بالأولى، فإنه قال ﴿**وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ**﴾ بصيغة الماضى، فهو يتناول ما عبدوه فى الزمن الماضى، لأن المشركين يعبدون آلهة شتى وليس معبودهم فى كل وقت هو المعبود فى الوقت الآخر، كما أن كل طائفة لها معبود سوى معبود الطائفة الأخرى. فقوله:﴿**وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ**﴾ براءة من كل ما عبدوه فى الأزمنة الماضية، كما تبرأ أولا مما عبدوه فى الحال والاستقبال، فتضمنت الجملتان البراءة من كل ما يعبده المشركون والكافرون فى كل زمان ماض، وحاضر، ومستقبل. وقوله أولا﴿ **لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ** ﴾لا يتناول هذا كله[٣٧٦]. وبهذا

---

(٣٧٣) انظر الرازى ٧١٧/١٦-٧١٨.

(٣٧٤) مسائل الرازى محمد بن أبى بكر ص ٣٨٦ وانظر الكشاف ٢٣٨/٤.

(٣٧٥) انظر البحر المحيط ٥٢٢/٨ الألوسى ٢١٥، المحرر الوجيز ٥/الدر المصون ٥٨٠/٦، الطبرى ٢١٣/٣٠، القرطبى ٧٣١٨/١٠.

(٣٧٦) دقائق التفاسير ٣٢٥/٦، ٣٢٦.

يكون فائدة العدول إلى اسم الفاعل فى هذا الموضع هو شمول جميع الأزمان، والتبرؤ من جميع معبوداتهم الباطلة التى عبدوها أو يعبدونها فى يوم من الأيام. فقد رجح ابن تيمية شمول دلالة اسم الفاعل فى هذا الموضع للأزمنة الثلاثة - والمشتهر هو دلالة اسم الفاعل المنون على الاستقبال ولكن يجوز صرفه إلى غيره بدلالة القرائن، وقد دل لفظ (عبدتم) على صرفه إلى معنى المضي، فضلا عن أن الكسائى وابن هشام جوزا إعماله ماضيا، كما أنه يجوز إعمال الفاعل مفسرا له بالماضى بأنه على حكاية الحال كقوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ (الكهف:١٨) وقوله: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [٣٧٧] (البقرة:٧٢)

وقد فسر القرطبى كذلك ﴿وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ على نفى العبادة منه لما عبدوا فى الماضى[٣٧٨]

وثمة فائدة أخرى لهذا العدول لم أجد من نبه عليها غير الإمام ابن تيمية وهى قوله: وقوله: ﴿وَلاَ أَنَا عَابِدٌ﴾ اسم فاعل قد عمل عمل الفعل، ليس مضافا، فهو يتناول الحال والاستقبال أيضا، لكنه جملة اسمية والنفى بما بعد الفعل فيه زيادة معنى، كما تقول: ما أفعل هذا، وما أنا بفاعله. وقولك" ما هو بفاعل" هذا أبدا، أبلغ من قولك" ما يفعله أبدا" فإنه نفى عن الذات صدور هذا الفعل عنها، بخلاف قولك" ما يفعل هذا" فإنه لا ينفى إمكانه وجوازه منه، ولا يدل على أنه لا يصلح له ولا ينبغى له بخلاف" ما هو فاعل، وما هو بفاعل" كما فى قوله تعالى﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ﴾ (النحل: ٧١) وقوله: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴾ (إبراهيم: ٢٢) وقوله"﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة:٧٤)﴿ وَمَا أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ﴾ (النمل: ٨١) ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ (فاطر:٢٢) ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾"(البقرة: ١٠٢) ... فقوله﴿وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ (الكافرون:٤) أى نفسى لا تقبل ولا تصلح لها أن تعبد ما عبدتموه ولو كنتم عبدتموه قط فى الماضى فقط، فأى معبود عبدتموه فى وقت فأنا لا أقبل أن أعبده فى وقت من الأوقات. ففى هذا من عموم عبادتهم فى الماضى والمستقبل، ومن قوة براءته وامتناعه وعدم قبوله لهذه العبادة فى جميع الأزمان ما ليس فى الجملة الأولى. تلك تضمنت نفى الفعل فى الزمان غير الماضى، وهذه تضمنت نفى إمكانه وقبوله لما كان معبودا لهم ولو فى بعض الزمان الماضى فقط، والتقدير: ما عبدتموه ولو فى بعض الأزمان الماضية فأنا لا يمكننى ولا يسوغ لى أن أعبده أبدا وهذا الذى ذكره

---

(٣٧٧) انظر الدر المصون٥٨٢/٦.

(٣٧٨) القرطبى ٧٣١٨/١٠.

الإمام فى هذا الموضع، قد نقله الإمام الألوسى وذكر ما أورد عليه ورده موجها لقول الإمام ابن تيمية فقال نقل أيضا عن شيخ الإسلام أن المراد بقوله سبحانه﴿ لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ نفى الفعل لأنها جملة فعلية، بقوله تعالى ﴿وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ نفى قبوله ص لذلك بالكلية لأن النفى بالجملة الاسمية آكد فكأنه نفى الفعل وكونه عليه الصلاة والسلام قابلا لذلك ومعناه نفى الوقوع ونفى إمكانه الشرعى ونوقش فى إفادة الجملة الاسمية نفى القبول ولا يبعد أن يقال إن معنى الجملة الفعلية نفى الفعل فى زمان معين والجملة الاسمية معناها نفى الدخول تحت هذا المفهوم مطلقا من غير تعرض للزمان كأنه قيل أنا ممن لا يصدق عليه ذلك المفهوم فتدبر[٣٧٩].

وقد رجح ابن كثير فى تفسيره كلام ابن تيمية السابق، واعتمده تلميذه ابن القيم فى تفسيره لسورة الكافرون واكتفى بحكايته عن غيره[٣٨٠] وأرى أنه يمكن توجيه كلام ابن تيمية باعتبار دلالة اسم الفاعل على النسب قال ابن مالك: ومع فاعل وفعال فعل فى نسب أغنى من الياء قبل ومن ثم يكون المعنى بناء على ذلك (ولا أنا بمنتسب إلى عبادتكم أبدا ولا أصلح لها ولا يمكن أن تكون من مثلى أو أنسب إليها).

ومثل هذا المعنى يصح أن يحمل عليه العدول على اسم الفاعل فى قوله تعالى: ﴿ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ أيضا.

قال الإمام ابن تيمية:" كل كافر بمحمد لا يعبد ما يعبده محمد ما دام كافرا، والفعل المضارع يتناول ما هو دائم لا ينقطع، فهو ما دام كافرا لا يعبد معبود محمد ﷺ لا فى الحاضر ولا فى المستقبل. ولم يقل عنهم" ولا تعبدون ما أعبد" بل ذكر الجملة الاسمية ليبين أنه نفس نفوسكم الخبيثة الكافرة بريئة من عبادة إله محمد، ولا يمكن أن تعبده ما دامت كافرة. إذ لا تكون عابدته إلا بأن تعبده وحده بما أمر به على لسان محمد، ومن كان كافرا بمحمد لا يكون عمله عبادة لله قط. وتبرئتهم من عبادة الله جاءت بلفظ واحد بجملة اسمية تقتضى براءة ذاوتهم من عبادة الله، لم تقتصر على نفى الفعل"[٣٨١].

ومن ثم فإن دلالة التعبير باسم الفاعل فى هذا الموضع شبيهة بدلالته فى الموضع السابق؛ إذ إن المعنى والله أعلم هو نفى صحة انتسابهم إلى عبادة الله تعالى ما داموا ملابسين لما هم عليه من الشرك والكفر.

---

(٣٧٩) الألوسى ٣٠/٢٥١-٢٥٢.

(٣٨٠) تفسير سورة الكافرون والمعوذتين للإمام ابن القيم ص ٧-٨ السنة المحمدية.

(٣٨١) دقائق التفاسير ٦/٣٢٧- ٣٢٨.

ومما جاء من استعمال اسم الفاعل أيضا بتلك الدلالة التى نبه عليها الإمام ابن تيمية سابقا غير ما ذكر من الآيات التى استشهد بها، قوله تعالى عن أخوة يوسف حينما وجهت إليهم تهمة سرقة صواع الملك **﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾** (يوسف:٧٣) حيث آثر صيغة اسم الفاعل على صيغة الفعل نحو (وما كنا لنسرق) للدلالة على عدم انتسابهم إلى هذه الصفة، وعدم صلاحيتهم للاتصاف بها. فكأن مثل هذا الفعل لا يمكن أن يتأتى منهم ألبتة، ولا يليق اتصافهم به وهم من بيت النبوة. ولذا قال الزمخشرى فى معناها (وما كنا قط نوصف بالسرقة وهى منافية لحالنا) وقال الألوسى فى تفسيره (أى ما كنا نوصف بالسرقة قط)[٣٨٢].

وقد يعدل إلى اسم الفاعل رعاية للقافية فمن ذلك ما أورده ابن جنى فى خصائصه:

لقد عيّل الأيتام طعنة ناشرة أناشر لا زالت يمينك آشرة

قال ابن جنى" أى ذات أشر، والأشر الحز والقطع، وذو الشىء قد يكون مفعولا كما يكون فاعلا"[٣٨٣].

فتقدير المعنى لا زالت يمينك مأشورة، ولكنه عدل إلى اسم الفاعل مراعاة للقافية.

العدول إلى الصفة المشبهة

فمن ذلك قوله تعالى: **﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً﴾** (النازعات:١١) عدلت الآية عن اسم الفاعل الذى جاءت عليه فواصل الآيات السابقة والتالية فى قوله تعالى: **﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ * أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ * يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الحَافِرَةِ * أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذاً كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾** فعدلت السورة فى هذه القراءة عن اسم الفاعل ناخرة الذى جاءت به القراءة الأخرى، قال الألوسى:" قرأ عمر وأبىّ وعبد الله وابن الزبير وابن عباس ومسروق ومجاهد والأخوان وأبو بكر ناخرة بالألف وهو كنخرة من نخر العظم أى بلى وصار أجوف تمر به الريح فيسمع له نخير أى صوت وقراءة الأكثرين أبلغ فقد صرحوا بأن فعلا أبلغ من فاعل وإن كانت حروفه أكثر وقولهم زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى أغلبى أو إذا اتحد النوع لا إذا اختلف كأن كان فاعل وفعل صفة مشبهة"[٣٨٤].

---

(٣٨٢) الكشاف ٢٦٨/٢، الألوسى ٢٧/١٣.

(٣٨٣) الخصائص ١٥٢/١-١٥٣.

(٣٨٤) انظر الألوسى ٣٠ ص ٢٨.

وإذا كان الأكثرون على أن (فعل) أبلغ من (فاعل)[٣٨٥] أو أن النخرة التى قد بليت، والناخرة التى لم تنخر بعد؛ فمن ثم كان التعبير بنخرة وهى صفة مشبهة تدل على ثبات تلك الصفة فى العظام لطول العهد مع ما فيها من معنى المبالغة خاصة وأن فعل من صيغ المبالغة كذلك. فلا جرم كان هذا أكثر مناسبة لاستبعاد هؤلاء الكافرين المنكرين للبعث بقولهم ﴿ **أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَإِذَا كُنَّا عِظَاماً نَّخِرَةً**﴾ وخولف الإيقاع لأجل هذه المناسبة، وقدمت رعاية المعنى على رعاية اللفظ فى هذه القراءة، وهى قراءة الأكثرين ولذا قال الطبرى:" وأفصح اللغتين عندنا وأشهرهما عندنا نخرة بغير ألف بمعنى بالية غير أن رءووس الآى قبلها وبعدها جاءت بالألف فأعجب إلىّ لذلك أن تلحق ناخرة بها ليتفق هو وسائر رءووس الآيات لولا ذلك كان أعجب القراءتين إلى حذف الألف منها[٣٨٦].

العدول إلى اسم المفعول

فمن ذلك قوله تعالى: عن نبيه داود عليه السلام﴿ **إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ**﴾ (سورة ص ١٨-١٩) حيث عدل عن مقابلة يسبحن فلم يقل (والطير يحشرن) فعدل إلى اسم المفعول. قال الزمخشرى:" وقوله (محشورة) فى مقابلة يسبحن إلا أنه لما لم يكن فى الحشر ما كان فى التسبيح من إرادة الدلالة على الحدوث شيئا بعد شىء جىء به اسما لا فعلا؛ وذلك أنه لو قيل وسخرنا الطير يحشرن على أن الحشر يوجد من حاشرها شيئا بعد شىء - والحاشر هو الله عز وجل - لكان خلفا لأن حشرها جملة واحدة أدل على القدرة. وعن ابن عباس كان إذا سبح جاوبته الجبال بالتسبيح واجتمعت إليه الطير فسبحت فذلك حشرها[٣٨٧].

فغايرت الآية بين فعل العبد وفعل الرب سبحانه، فالتسبيح يقع من المخلوقات شيئا فشيئا أما الحشر فيقع من الله تعالى جملة واحدة بأمر واحد، إذ يقول للشىء كن فيكون، كما أن ذلك يدل على اجتماع الطير لداود عليه السلام فى وقت واحد ساعة تسبيحه لا أنها تحضر فى أوان تسبيحه شيئا فشيئا بل تحضر معه جملة واحدة من بداية التسبيح إلى منتهاه.

كما أرى كذلك أن صيغة الاسم تبرز خصوصية النعمة التى أنعم الله بها على نبيه داود عليه السلام؛ إذ من شأن الطير الحركة والتنقل، ومن ثم فإن التعبير بصيغة

---

(٣٨٥) انظر السابق وانظر الكشاف ١٨١/٤، والدر المصون ٤٧٢/٦، المحرر الوجيز ٤٣٢/٥.

(٣٨٦) انظر الطبرى ٢٣/٣٠.

(٣٨٧) انظر الكشاف ٣٢/٣.

الاسم تفيد أن الطير حين تسبح مع داود تفارق طباعها وتثبت فى مكانها خاشعة لا تكاد تريم[٣٨٨].

العدول إلى المفرد

من الدلالات الفنية للعدول إلى المفرد ما جاء فى قوله تعالى فى سورة الجن﴿**وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً**﴾ (الجن:٨-٩) فالحرس والرصد: اسما جمع، ومع ذلك وصف الحرس بالمفرد، وجاء الرصد وصفا لمفرد، قال الزمخشرى:" والحرس اسم مفرد فى معنى الحراس كالخدم فى معنى الخدام ولذلك وصف بشديد ولو ذهب إلى معناه لقيل شِدادا، والرصد مثل الحرس اسم جمع للراصد على معنى ذوى شهاب راصدين بالرجم وهم الملائكة الذين يرجمونهم بالشهب ويمنعونهم من الاستماع ويجوز أن يكون صفة للشهاب بمعنى الراصد أو كقوله ومعى جياعا يعنى يجد شهابا راصداً له ولأجله[٣٨٩].

وقال الطيبى" وقوله تعالى(شهابا رصدا) نزل الواحد وهو الموصوف منزلة الجمع لوصفه به إظهارا لكمال حفظه وقول الشاعر... "ومعى جياعا" جعل كل مكان من أمكنة المعا بمنزلة (معا) واحد مبالغة فى الجوع[٣٩٠].

وقد ذهب الزمخشرى وجماعة من المفسرين إلى أن السر فى العدول عن الجمع إلى المفرد فى وصف الحرس أن ذلك جاء رعاية للفظ دون رعاية المعنى إذ لو روعى المعنى لقال شدادا[٣٩١]. والسر فى هذا العدول - فى رأيى - يرجع إلى الرمز والإشارة إلى وحدة هذا الحرس، واجتماع أمرهم، حتى كأنهم حارس واحد، فليس ثمة اختلاف بينهم ولا تفرق، ومن ثم فأى شيطان يحاول استراق السمع توجهوا إليه جميعا فيضربونه ضربة ملك واحد.

وثمة دلالة أخرى فى العدول إلى (شهاب) وهى التخصيص، حيث إن إفراد الشهاب يدل على أن كل جنى قد أعد له شهاب مختص به لا يعدوه. ويرشح لهذا المعنى لفظة (له)، ومن ثم أعرب بعضهم رصدا مفعولا لأجله.

---

(٣٨٨) أفدناه من تعليق أستاذنا د/ حسن طبل على هذا الموضع.

(٣٨٩) انظر الكشاف ١٤٦/٤.

(٣٩٠) انظر التبيان للطيبى ١٥٣/١.

(٣٩١) انظر الكشاف السابق - الرازى ٧٦٩/١٥ الألوسى ٨٦/٢٩- الدر المصون ٣٩٢/٦، القرطبى ٦٨٠٤/١٠.

من أمثلة العدول إلى المفرد كذلك فى القرآن الكريم توحيد النور وإفراده فى مقابل جمع الظلمات مما يمثل نوعا من العدول فى جميع مواضعه فى القرآن، حيث ورد النور مفرداً فى مقابل جمع الظلمات فى أحد عشر موضعا فى كتاب الله تعالى ولم يرد خلاف ذلك فى موضع واحد فمن ذلك ﴿**اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ**﴾ (البقرة: ٢٥٧) وقوله تعالى﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**﴾ (الأنعام:١) وقوله تعالى﴿**الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ (إبراهيم:١).

ففى هذه الأمثلة كلها جاءت الظلمات مجموعة ثم عدل عن هذا الجمع بإفراد النور، ويتجلى هذا العدول فى أوضح صوره فى قوله تعالى"﴿**وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ * وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ**﴾ (فاطر: ١٩-٢٢) ففى هذا الموضع يتضح للقارىء والسامع مخالفة قاعدة السياق المطردة فى الجمع بين الصيغ المتناسقة إفرادا وجمعا، ومن ثم تبدو نعمة هذا العدول متميزة تنادى بالالتفات إلى سر تلك المخالفة، وذلك العدول. ويسهل على المتدبر لهذا العدول معرفة سره والوقوف عليه، وهو وحدة سبيل النور والإيمان، وتشعب كل السبل دونه وتفرقها ومن ثم أفرد صراط الله المستقيم فى مقابل سبل الضلال، فى قوله تعالى ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾ (الأنعام:١٥٣) قال أبو حيان" جمعت الظلمات لاختلاف الضلالات، ووحد النور لأن الإيمان واحد[٣٩٢]

" وقال الألوسى" أفرد النور لوحدة الحق، كما أن جمع الظلمات لتعدد فنون الضلال"[٣٩٣]

وقال ابن القيم" والمقصود أن طريق الحق واحد، إذ مرده إلى الله الملك الحق، وطرق الباطل متشعبة متعددة فإنها لا ترجع إلى شىء موجود، ولا غاية لها توصل إليها، بل هى بمنزلة ثنيات الطريق، وطريق الحق بمنزلة الطريق الموصل إلى المقصود. فهى وإن تنوعت فأصلها طريق واحد، لما كانت الظلمة بمنزلة طريق الباطل، والنور بمنزلة طريق الحق، بل هى أفرد النور وجمعت الظلمات[٣٩٤].

---

(٣٩٢) انظر البحر المحيط ٢٨٣/٢.

(٣٩٣) روح المعانى ١٤/٣.

(٣٩٤) انظر بدائع الفوائد ١١٩/١. ط/ دار الفكر.

ويلمح الألوسى وجها فى إفراد النور وجمع الظلمات، وهو الإيماء إلى قلة أتباع الحق، وكثرة أتباع الباطل، حيث ردد كلامه بين القول السابق" أو أن الأول(أى النور) إيماء إلى القلة والثانى (أى الظلمات) إلى الكثرة[٣٩٥].

وهذا الذى ذكره غير معارض للقول الأول فأتباع الحق قليلون كما يقرره كتاب الله تعالى فى مواضع عديدة.

ومن مواضع العدول إلى المفرد لتحقيق غرض بلاغى، ما جاء فى القرآن الكريم من إفراد لفظ النعمة فى سياقات عديدة، أريد التعبير فيها عن كثرة النعم؛ ومع ذلك فقد جاءت الصيغة مفردة فى تلك المواضع؛ حتى بلغ عددها سبعة وأربعين موضعا، ولم ترد مجموعة إلا فى مواضع ثلاثة يأتى التعرض لها عند الحديث عن الجمع.

فمن ذلك قول الله تعالى فى حكاية تذكير موسى قومه بنعم الله عليهم﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ** ﴾ (المائدة: ٢٠) فقد عدد موسى ثلاث نعم على سبيل الإجمال، وإلا فتفصيل تلك النعم وخاصة إيتاؤهم ما لم يؤت أحدا من العالمين لا يستطاع، ولا يقدر على عده، ومع ذلك فقد أفرد الله تعالى النعمة.

وهكذا فى سياقات كثيرة يدل السياق على العدول فى لفظ النعمة عن الجمع إلى الإفراد، ويعلل العلماء لذلك بأن النعمة (اسم جنس فهى مفردة بمعنى الجمع)[٣٩٦].

ويعلق الشهاب على قول البيضاوى" ولا تطيقوا عد أنواعها فضلا عن أفرادها فإنها غير متناهية فيقول الشهاب (وقال بعض الفضلاء: المعنى إن تشرعوا فى عد أفراد نعمة من نعمه تعالى لا تطيقوا عدها، وإنما أتى بإن، وعدم العد مقطوع به، ونظراً إلى توهم أنه يطاق، وفيه مخالفة لكلام المصنف رحمه الله تعالى، وهو أدق منه، إذ فيه إشارة إلى أن النعمة الواحدة لا يمكن عد تفاصيلها[٣٩٧].

وهذا الذى نقله الشهاب عن هؤلاء الفضلاء فى غاية الجودة ويويده ما ذكره الراغب من أن" النعمة الحالة الحسنة وبناء النعمة بناء الحالة التى يكون عليها الإنسان كالجلسة والركبة[٣٩٨].

---

(٣٩٥) انظر روح المعانى – السابق.

(٣٩٦) انظر القرطبى ٣٨٢/١، والمفردات للراغب ص ٤٩٩.

(٣٩٧) انظر حاشية الشهاب ٢٧٠/٥.

(٣٩٨) انظر المفردات ص ٤٩٩.

فالنعمة إذا على بناء اسم الهيئة كالمشية والجلسة والركبة وهذا البناء إنما وضع للدلالة على الهيئة لا على العدد ومعلوم أن هيئة الشيء يدخل فيها إفراده التى تركب منها، والنظر إلى دقة صنعها، وما فيها من جمال ولطف وإبداع. فكأن تراكب الدلالة للفظة النعمة فى تلك السياقات من الإفراد والهيئة يدل على أن المراد هو فى تفاصيل كل نعمة بمفردها، وفى هيئتها الحاصلة وما اشتملت عليها من نعم لا تعد ولا تحصى، وإذا جاز لنا أن نستطرد لتأمل نعمة كنعمة الطعام كيف حصلت فى ألوان وطعوم وأشكال مختلفة تناسب كل الأذواق والأمزجة، ثم لو تأملنا نوعا منها وهو الفاكهة لنتأمل تعددها وتنوعها، ثم إذا تأملنا واحدا من تلك الفاكهة كثمرة الرمان أو البرتقال أو غير ذلك ونحاول عد النعم التى اشتملت عليها هيئة تلك الثمرة من حفظها على الشجر ثم فى غلاف خارجى سميك، ثم فى قشر داخلى رقيق ثم فى تناسقها، ثم فى صفاء لونها ثم فىلذة مذاقها، ثم فى كذا وكذا نعم لا تعد ولا تحصى بداخل نعمة متفرعة على نعمة وهكذا . ومن ثم تتراكب دلالة الكلمة فى تلك السياقات من الهيئة والإفراد لإعطاء معنى المبالغة والتعجيز فى حصر تلك النعم الربانية.

العدول عن صيغة جمع الكثرة إلى جمع القلة

من أمثلة العدول عن صيغة جمع الكثرة إلى جمع القلة قوله تعالى﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾ (النحل:١١٢) فعلى الرغم من كثرة نعم الله التى كفرت بها تلك القرية فقد عدلت الآية عن التعبير بجمع الكثرة(نعم) إلى جمع القلة(أنعم) لغرض بلاغى يكشف عنه العلامة أبو السعود حيث يقول" وإيثار جمع القلة للإيذان بأن كفران نعمة قليلة حيث أوجب هذا العذاب، فما ظنك بكفران نعم كثيرة"[٣٩٩] هذا الذى نبه عليه العلامة أبو السعود هو ما يناسب مقام التخويف لهؤلاء الكافرين الجاحدين لنعم الله تعالى عليهم، ولهذه الطريقة نظائر فى كتاب الله تعالى فمنها فى غير جانب الصيغ قول إبراهيم عليه السلام لأبيه وهو فى مقام تخويفه عذاب الله تعالى له﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً**﴾ (مريم:٤٥) حيث عبر بـ (يمسك) بدلا من يصيبك، وبـ(الرحمن) بدلا من (الجبار) كأنه يخوفه العذاب الأدنى لو عامله الله برحمته، فكيف لو عامله بشدته وجبروته. وعلى هذا النحو جاء التخويف فى الآية السابقة من جحد قليل النعم فضلا عن كثيرها، وهذا أشد مبالغة فى التخويف.

---

(٣٩٩) انظر تفسير أبى السعود ١٤٥/٥.

العدول عن صيغة جمع القلة إلى جمع الكثرة

من أمثلة ذلك فى القرآن قوله تعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (البقرة:٢٦١) حيث كان الأصل أن توصف السبع بجمع القلة سنبلات كما قال الله تعالى فى سورة يوسف ﴿**وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ**﴾ (يوسف:٤٣) إلا أن الآية هنا قد عدلت عن القلة المناسبة للسبع إلى الكثرة لغرض بلاغى لا للاتساع فى اللغة أو لتعاور الأبنية كما ذهب إليه الزمخشرى فيما نرى.

وهذا الغرض البلاغى فيما نرى إنما هو مناسبة سياق الآيات الدال على التكثير والمباركة من الله تعالى لهذه الصدقة، وإلا فقد استغرب التمثيل بسنبلة تنبت مائة حبة واستشكلوا إمكان وقوع ذلك.

والمقصود أنه مقام تكثير وبركة من الله تعالى، وجزاء واسع غير محدود ولذا ذيلت الآية بقوله تعالى﴿**وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ فهى" زيادة لا تقدر ولا تحصر، فذلك العدد لا مفهوم له".

٢- العدول إلى صيغة الفعل

العدول من (فعل) إلى (أفعل)

من ذلك قول الله تعالى ﴿ **إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً * وَأَكِيدُ كَيْداً * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً** ﴾ (الطارق: ١٧) حيث عدل عن صيغة (فعل) المشددة فى (مهل) إلى (أفعل) فى (أمهل) وقد حمل ذلك بعض المفسرين على تحسين نمط الكلام[٤٠٠].

وبنحوه قال السمين الحلبى" لما كرر الأمر توكيدا خالف بين اللفظين"[٤٠١] والذى يظهر والله تعالى أعلم أن سر العدول يتجاوز المخالفة بين اللفظين لمجرد المخالفة، بل إن العدول عن الصيغة الأولى إلى الصيغة الثانية إنما هو عدول فنى مقصود، وذلك أن الفارق بين صيغتى فعل وأفعل أن الأولى تدل على التكثير غالبا[٤٠٢]. أما الثانية (أفعل) فللتعدية غالبا[٤٠٣].

---

(٤٠٠) انظر الكشاف ٢٠٣/٤، والمحرر الوجيز ٣٩٣/١ والرازى ٣٤٢/١٦.

(٤٠١) انظر الدر المصون ٥٠٨/٦.

(٤٠٢) انظر شرح الشافية ٩٢/١.

(٤٠٣) انظر شرح الشافية ٩٢/١.

ومن ثم جاء الأمر بالتمهيل مطلقا دون تقييد بالتقليل جاء معه الفعل (مهل) الدال على التكثير، ولما كان هذا الفعل يشعر بطول مدة التمهيل مما قد يلقى الوهن واليأس فى قلوب الدعاة، أعقبها القرآن بصيغة أفعل مقيدة بما يفيد التقليل، ليدل بذلك على أن تمهيلهم وإمهال الله تعالى إياهم وإن طال فهو آت لا محالة، وهو قليل لا شك فى مقابل ما ينتظرهم من عذاب يوم القيامة فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة. وذلك كما قال تعالى﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ .إلى قوله ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً *وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ (المعارج:١-٧) قال الرازى" منهم من قال" أمهلهم رويدا" إلى يوم القيامة، وإنما صغر ذلك من حيث علم أن كل ما هو آت قريب. ومنهم من قال أمهلهم رويدا إلى يوم بدر، والأولى أولى؛ لأن الذى جرى يوم بدر، وفى سائر الغزوات لا يعم الكل، وإذا حمل على أمر الآخرة عم الكل، ولا يمتنع من ذلك أن يدخل فى جملته أمر الدنيا، مما نالهم يوم بدر وغيره. وكل ذلك زجر وتحذير للقوم[٤٠٤].

ومن ثم فالصيغة الأولى (مهل) المشعرة بطول مدة التمهيل، فيها تسكين وتصبير له ص ولذا قال الزمخشرى" فمهل الكافرين يعنى لا تدع بهلاكهم ولا تستعجل به(أمهلهم رويدا) أى إمهالا يسيرا وكرر وخالف بين اللفظين لزيادة التسكين منه والتصبير عن الرسولﷺ [٤٠٥].

العدول إلى صيغة تفعل

من أمثلته فى الشعر قول المتنبى:

ألا ليت شعرى هل أقول قصيدة فلا أشتكى فيها ولا أتعتب[٤٠٦]

أرى أن الشاعر قد عدل إلى هذه الصيغة (أتفعل) هنا لأجل القافية، وليس مراعاة للمعنى، إذ يصعب حمل هذه الصيغة فى هذا السياق على معانيها الشائعة فيها دون تكلف، وذلك أن هذه الصيغة تأتى لخمسة معان:

أولها: مطاوعة فعّل مضعف العين

وثانيها: الاتحاد

---

(٤٠٤) انظر مفاتيح الغيب ٣٤٣/١٦.

(٤٠٥) انظر الكشاف ٢٠٣/٤ تعرض أستاذنا د/ حسن طبل فى كتابه أسلوب الالتفات لعدد كبير من أمثلة ذلك النوع من العدول. لذا فقد رأيت الاجتزاء بما ذكرت عن تكرار جهود سابقة. انظر أسلوب الالتفات فى البلاغة القرآنية ص ٦٤ إلى ٨٥.

(٤٠٦) انظر شرح التبيان للعكبرى ١٢٩/١.

وثالثها: التكلف

ورابعها: التجنب

وخامسها: التدرج

وقد يغنى عن الثلاثى إذا كان غير وارد والفعل المستخدم هنا قد ورد منه الثلاثى عتب، ومن ثم فهو ليس بمعنى الثلاثى[٤٠٧].

وهذه المعانى كلها ليست مناسبة لمعنى البيت إلا بنوع من التكلف، فمعنى البيت" ليتنى أعلم هل تخلو قصيدة لى من شكوى أشكو الدهر فيها بأن يبلغنى المراد، وأنال منه ما أطلب وأدع الشكوى"[٤٠٨] ومن ثم فالعدول هنا لأجل الإيقاع، ولذا لم يحسن.

ويمكن أن نتكلف للشاعر هنا إرادة معنى التكلف فى العتاب والتدرج فيه، خاصة وأن أغلب معاتبة الشاعر فى قصائده إنما كانت للملوك والرؤساء الذين كان يؤمل لديهم بعض حاجته؛ ولذا كان يعاتبهم بشىء من التلطف فى كثير من الأحيان، وكذا كثيرا ما يضمن ذلك مدائحه إياهم، وقد يفيض به الأسى أحيانا فيخرج مدحه إلى حد الهجاء، وذلك من نحو قوله فى مدحه كافور:

وما طربى لما رأيتك بدعة لقد كنت أرجو أن أراك فأطرب
وتعذلنى فيك القوافى وهمتى كأنى بمدح قبل مدحك مذنب[٤٠٩]

٣- العدول إلى صيغة ذات معنى متعدد

من ذلك قوله تعالى﴿ **وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ * إِلاَّ رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ** ﴾ (يس:٤٣).

حيث حمل المفسرون صيغة (فعيل) فى لفظة (صريخ) على ثلاثة أوجه:

١- أن تكون بمعنى فاعل (صارخ) أى مستغيث.

٢- أن تكون بمعنى مفعل (مصرخ) أو منقذ أو مغيث.

٣- أن تكون بمعنى المصدر أى الصراخ نفسه، أو فلا إغاثة كما ذكر الزمخشرى فيكون مصدرا بمعنى الإصراخ[٤١٠].

---

(٤٠٧) انظر شرح الشافية ١٠٤/١، شذا العرف ص ٤٥.

(٤٠٨) انظر العبكرى ١٢٩/١.

(٤٠٩) انظر شرح التبيان للعبكرى ١٣٣/١.

ويبدو لى أن سياق الآية يحتمل أغلب الوجوه المذكورة فيه فقد يكون الصريخ. بمعنى المنقذ أو المغيث وهو ما رجحه السمين الحلبى والألوسى وغيرهما ممن ذكرت؛ وذلك لأن الآية فى معرض تصوير تخويف البشر من قدرة الله تعالى عليهم فهو إن يشأ يغرقهم فلا مغيث لهم إن صرخوا واستغاثوا.

وحمل الآية على معنى فلا صارخ ولا صراخ يمكن توجيهه على حال الاستئصال، فضلا عن أن إثبات الصارخ والصراخ لهؤلاء الغرقى يدعم ما الآية بصدده من تخويف العبد، وذلك بتصوير هيئة الصارخ وكثرة الصراخ عند معاينة الأهوال مع افتقاد المغيث والمنقذ أو المعين.

وأما حمل الزمخشرى الصريخ على معنى الإصراخ والإغاثة، فقد اعترضه الشيخ صاحب البحر بأنه يحتاج إلى نقل أن صريخا يكون مصدرا بمعنى إصراخ.

ومن ثم نرى كيف تتضافر معانى تلك الصيغة فى خلق معنى ذى ظلال متعددة تتفق مع السياق وتتناغم معه.

- ومن ذلك ما جاء فى قوله تعالى﴿**لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ** ..... **بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾[٤١١]. (آل عمران ١٨١-١٨٢) حيث جاءت صيغة المبالغة (ظلام) فى هذه الآية وشبيهاتها على وزن (فعال) محتملة الدلالة على المبالغة، والدلالة على النسبة، وقد استشكل العلماء دلالتها على المبالغة لأنها تمثل عدولا عن السياق والمقتضى وما ربك بظالم، وذلك أن السياق هنا بصدد بيان كمال عدله سبحانه وتنزيهه عن نسبة الظلم إليه.

ومن ثم اختلفت أقوال المفسرين فى تحرير دلالة تلك الصيغة وتوجيهها على خمسة أقوال حكاها السمين الحلبى فى الدر حيث قال مستشكلا: وهنا سؤال: وهو أن (ظلام) صيغة مبالغة تقتضى التكثير، فهى أخص من (ظالم) ولا يلزم من نفى الأخص نفى الأعم فإذا قلت: (ليس بظالم) انتفى الظلم من أصله، فكيف قال تعالى: (ليس بظلام للعبيد) وفى ذلك خمسة أوجه، ذكر أبو البقاء منها أربعة:

---

(٤١٠) انظر الدر المصون ٥/ ٤٨٦، المحرر الوجيز ٤/٤٥٥، روح المعانى ٢٨/٢٣، الكشاف ٢٨٨/٣، مجاز القرآن ١٢٦/٢، مفاتيح الغيب ١٤٠/١٣، القرطبى ٨/ ٥٤٧٩، صيغة فعيل (صريخ) ص ٣٥٧،١٩٢.

(٤١١) ﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (آل عمران: ١٨١-١٨٢).

الأول: أن(فعالا) قد لا يراد به التكثير كقول طرفة:

ولست بحلال التلاع لبيته ولكن متى يسترفد القوم أرفد[٤١٢]

لا يريد هنا أنه قد يحل التلاع قليلا، لأن ذلك يدفعه آخرُ البيت الذى يدل على نفى البخل على كل حال، وأيضا تمام المدح لا يحصل بإرادة الكثرة.

الثانى: أنه للكثرة ولكنه لما كان مقابلا بالعباد وهم كثيرون ناسب أن يقابل الكثير بالكثير.

والثالث: أنه إذا نفى الظلم الكثير انتفى القليل ضرورة، لأن الذى يظلم إنما يظلم لانتفاعه بالظلم، فإذا ترك الظلم الكثير مع زيادة نفعه فى حق من يجوز عليه النفع والضر كان للظلم القليل المنفعة أترك.

الرابع: أن يكون على النسب أى: لا ينسب إليه ظلم، فيكون من باب: بزاز وعطاء كأنه قيل: ليس بذى ظلم البتة.

الخامس: قال القاضى أبو بكر: (العذاب الذى توعّد أن يفعله بهم لو كان ظلما لكان عظيما فنفاه على حد عظمته لو كان ثابتا).

وذكر الزمخشرى فيها الوجهين الثانى والخامس ولم يزد عليها[٤١٣].

وأجاب الرازى عن الإشكال بالوجه الخامس ولم يزد عليه[٤١٤]

ووجه الرازى محمد بن أبى بكر بن عبد القادر ت ٦٦٦ هـ كلا من الوجوه الثانى والرابع والخامس توجيها حسنا فقال: صيغة المبالغة جىء بها لكثرة العبيد لا لكثرة الظلم، كما قال الله تعالى ﴿وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ وقال: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ﴾ (الجن:٢٦) و﴿عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ (سبأ: ٤٨) لما أفرد العموم لم يأت بصيغة المبالغة، ونظيره قولهم: زيد ظالم لعبده، وعمرو ظلام لعبيده، فهما فى الظلم سيان. وكذلك قال تعالى ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ فشدد لكثرة الفاعلين لا لتكرار الفعل، أو الصيغة هنا للنسب أى ينسب بذى ظلم. الثانى أن العذاب من العظيم القدر، الكثير العدل لولا سبق الجناية يكون أفحش وأقبح من الظلم ممن ليس عظيم القدر كثير العدل، فيطلق عليه

---

(٤١٢) الدر المصون ٢٧٤/٢، وانظر الألوسى حيث ذكر هذه الأقوال ما عدا الخامس.

(٤١٣) الكشاف ٢٣/٤.

(٤١٤) الرازى ٥٩٩/٤.

اسم الظلام باعتبار زيادة قبح الفعل منه لا باعتبار تكرره، فحاصله أن صيغة المبالغة تارة تكون باعتبار زيادة الفعل، وتارة باعتبار صفته، ففعل الظلم لو وجد من الله تعالى وتقدس لكان أعظم من ألف ظلم يوجد من عبيده، باعتبار زيادة وصف القبح، ونظيره قوله تعالى ﴿وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ (٤١٥).

والذى أراه فى مثل هذا الموضع والله تعالى أعلم - أن هذا العدول إلى تلك الصيغة ذات المعنى المتعدد فى مثل هذا الموضع بين المبالغة والنسبة بحيث تحتمل الصيغة تلك الوجوه المذكورة جميعا، بما يصعب معه ترجيح أحد تلك الوجوه على غيرها كما صنع أغلب من تعرضوا لهذه الآية من المفسرين - أقول إن هذا العدول لا جرم أنه عدول قصد به ثراء الدلالة، وإثارة الفكر، وتعجيز العقول، دون القدح فى هذا الكتاب المعجز، فعلى أى هذه الوجوه المذكورة تأملت موقع تلك الصيغة وجدتها من البلاغة بمكان فالمبالغة فى الظلم جديرة بالملك إذا ظلم عبيده مع استغنائه عن ظلمهم، وتضررهم به أبلغ الضرر، وفيه مطابقة حال المتكلم ما فيه فقد جاء معبرا عن عدله سبحانه على أتم وجه، فكان رب العزة سبحانه يعظم تلك الصفة فى حق نفسه أيما تعظيم لو كان منه أدنى ظلم وحاشاه سبحانه، فكأنه جرى على طريقتهم فى التعكيس ليثبت الضد على اليقين على نحو ما سبق بيانه نقلا عن الزمخشرى فى قوله تعالى ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ (التكوير:١٤) (٤١٦) وشبيه به ولله المثل الأعلى قول القائل عن نفسه:" يكون كافرا أو يخرج من الإسلام إن كان كاذبا" ومراده المبالغة فى إثبات صدقه على أكمل وجه لا كونه يرضى بذلك، وإن كان هذا مما قد نهى عنه(٤١٧).

فكأن رب العزة جل وعلا قال: أكون ظلاما لو ظلمت عبيدى ولا يكون ذلك أبدا، فمن ثم تثبت صفة العدل له على جهة اليقين، فهذا من باب الضد وهو طريق لدى العرب مطروق.

كذلك فإن تكثير المعمول يناسبه تكثير العامل، كما فى ﴿عَالِمِ الغَيْبِ﴾ (الجن:٢٦)، و﴿عَلاَّمُ الغُيُوبِ﴾ (سبأ: ٤٨) فحيث كان المعمول مفردا لم يبالغ فى عامله، وحيثما كان جمعا بولغ فيه.

---

(٤١٥) مسائل الرازى ص ٣٨ ط مصطفى الحلبى.

(٤١٦) انظر مبحث اختبار المفرد، وانظر الكشاف ١٨٩/٤.

(٤١٧) وإنما جاء الحديث عن النبى ﷺ ذم من فعل ذلك وأنه يكون كما قال، لأن العبد ليس فى مقدوره شىء فربما وقع ما حلف عليه، فيكون قد عرض دينه للبطلان ولو بالقول.* انظر كذلك مواضع أخر وردت فيها صيغة المبالغة(ظلام) بنحو هذا السياق فى (الأنفال:٥١، الحج: ١٠، فصلت:٤٦، ق:٢٩.

وأما القول بأنه إذا ترك كثير الظلم فتركه للقليل أولى فهو وإن كان أضعف تلك الأقوال فى رأيى؛ فإننا لا نعدم له وجها كذلك. خاصة وأن الكلام فى حق الملك المالك لكل شىء فإنه إذا تنزه عن الظلم العظيم فتنزهه عن الحقير من باب أولى.

وأما على القول بأن الصيغة للنسبة فلا إشكال.

ومن ثم نرى لتلك الصيغة فى ذلك الموقع من الثراء الدلالى، وإثارة الذهن، وإيقاظه ودعوته إلى التفكير والتدبر ما لا نجده فى استعمال اسم الفاعل (ظالم).

- ومن أمثلته: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ (يوسف:٨٠)

النجى قد يكون اسما ومصدرا[٤١٨].

فنجيا: فعيل وهو هنا بمعنى (مفاعل، أو مصدر)[٤١٩].

قال الراغب: (النجى المناجى ويقال للواحد والجمع)[٤٢٠].

وقد جعله ابن عطية مصدرا فقال: (النجى لفظ يوصف به من له نجوى واحدا أو جماعة أو مؤنثا أو مذكرا، فهو مثل عدول وعدل)[٤٢١].

وقال الألوسى (وحده وكان الظاهر جمعه لأنه حال من ضمير الجمع لأنه مصدر بحسب الأصل كالتناجى أطلق على المتناجين مبالغة أو لتأويله بالمشتق والمصدر ولو بحسب الأصل يشمل القليل والكثير، أو لكونه على زنة المصدر لأن فعيلا من أبنية المصادر، وهو فعيل بمعنى مفاعل كجليس بمعنى مجالس وكعشير بمعنى معاشر، أى مناج بعضهم بعضا فيكون متناجين)[٤٢٢].

وذكر الزمخشرى الوجهين، واستحسن المصدر فقال (والنجى على معنيين: يكون بمعنى المناجى.. ومنه قيل قوم نجى كما قيل (وإذا هم نجوى) تنزيلا للمصدر منزلة الأوصاف، ويجوز أن يقال هم نجى كما قيل هم صديق لأنه بزنة المصادر.. (نجيا) ذى نجوى أو فوجا نجيا أى مناجيا لمناجاة بعضهم بعضا، وأحسن منه أنهم تمحضوا تناجيا لاستجماعهم لذلك وإفاضتهم فيه بجد واهتمام كأنهم فى أنفسهم صورة التناجى

---

(٤١٨) لسان العرب ٤٣٦١/٦.

(٤١٩) د/ على طلب/ صيغة فعيل واستعمالاتها ص ٣٥٧.

(٤٢٠) المفردات ص ٤٨٤.

(٤٢١) المحرر الوجيز ٢٦٩/٣.

(٤٢٢) روح المعانى ٣٥/١٣.

وحقيقته..)[٤٢٣] ونخلص من تلك النقول إلى احتمال فعيل فى قوله(نجيا) أن تكون بمعنى الصدر أو بمعنى مفاعل، والتفت الزمخشرى والألوسى إلى العدول فيها عن الجمع، وعللوا ذلك بأن فعيلا قد تأتى للمفرد والجمع لأنها هنا مصدر أو على زنة المصدر، وقد التفت إلى ذلك أيضا أبو عبيدة والأخفش[٤٢٤].

والذى يظهر من القرائن فى هذا الموضع أن نجيا هنا مصدر، وهذا ما ذكره ابن عطية فى تفسيره ولم يلتفت إلى غيره وهو ما استحسنه الزمخشرى، وهو ما يرجحه كلام كل من أبى عبيدة والأخفش والألوسى، وذلك لوجوه:

الأول: أن (فعيلا) تأتى للمصدر بلا تأويل، فهى إحدى صيغ المصادر، ومما جاء عليها مصدرا: زئير، وخرير، وصهيل، وزفير، وشهيق، ونفيق، ونهيق، وأنين، وفديد[٤٢٥].

الثانى: أن (نجيا) تدل على صوت والغالب فى المصدر الآتى على(فعيل) أن يدل على صوت كالأمثلة السابقة.

الثالث: أن جعله بمعنى مفاعل يحتاج إلى تأويل، وحمل اللفظ على معناه بلا تأويل هو الأصل فلا يعدل عنه بغير قرينة، أو حاجة إليه كاستحالة حمل اللفظ على معناه الصريح.

الرابع: أن (نجيا) وإن كان بلفظ المفرد إلا أن جعله مصدرا بجعله صالحا للمفرد والجمع، كما سبق بيانه.

الخامس: أن السياق يقتضى استحسانه وترجيحه كما هو ظاهر كلام الزمخشرى، كأنهم صاروا بذلك حقيقة التناجى نفسها، وفيه من تصوير المعنى وتقريره ما فيه.

السادس: أن جعله بمعنى المشتق يخرجنا من دلالة الإفراد إلى الجمع، لأننا نؤوله بلفظ مناجين أو متناجين، وهذا يفقدنا معنى لا يستهان به فى وصفهم بصيغة المفرد التى تجعلهم كالشخص الواحد فى تناجيهم واجتماع أمرهم لتدبر المخرج مما نابهم بسبب احتجاز أخيهم، وقد أخذ أبوهم عليهم موثقا من الله ليأتنه به، مع تفريطهم فى يوسف من قبل، ولما كان هذا الأمر يهمم جميعا، لأن المسئولية مشتركة بينهم وواقعة

---

(٤٢٣) الكشاف ٢٦٩/٢.

(٤٢٤) مجاز القرآن ٣١٥/١- معانى القرآن ٣٦٧/٢.

(٤٢٥) هامش د/ على طلب/صيغة فعيل واستعمالاتها ص ١٢.

عى عاتقهم جميعا فقد اجتمعوا كأنهم رجل واحد لتدبر الخلاص مما نزل بهم، ولذا فإن تأويل نجيا. بمناجين أو متناجين يفقدها ذلك المعنى، وليس كذلك المصدر، لأن المقصود منه ليس الدلالة على العدد وإنما على الحقيقة والماهية[٤٢٦]

فهذا مثال لما تشترك فيه الصيغة بين معنيين أحدهما ظاهر ترجحه القرائن، وآخر مرجوح ولكنه مما تحتمله دلالة الصيغة؛ ولكن تبقى بعد ذلك للمعانى الأخرى التى تحتملها الصيغة ظلالها الدلالية التى تزيد من ثراء المعنى؛ وذلك حيث تكون تلك المعانى موافقة للسياق، غير متنافرة معه كما فى المثال حيث خلص إخوة يوسف متناجين مبالغين فى تناجيهم حتى صاروا كأنما هم هيئة التناجى وحقيقته.[٤٢٧]

---

(٤٢٦) د/ محمد عبد العزيز، أثر أقسام الكلم فى الجملة العربية ص ١١٢.

(٤٢٧) هناك صور أخرى للإعجاز الأسلوبي على المستوى الصرفي في القرآن الكريم تجدها في دراستنا للتكرار في الصيغ في كتابنا : الإعجاز الصرفي للقرآن الكريم.